المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام
The International Conference on Mercy in Islam
قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية

معالم الرحمة بالبيئة ومكوناتها في السنة النبوية الشريفة

إعداد:
د. محمد عبد القادر الفقي

٣٦٥

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وقدوة العاملين، ورحمة الله للعالمين، وخاتم الأنبياء والمرسلين: محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد كثرت الدراسات التي تعنى بالبيئة وحمايتها ورعايتها، بحيث صارت الشغل الشاغل لكثير من المنظمات الدولية والإقليمية، ومراكز الأبحاث الحكومية، فضلًا عن المؤسسات التعليمية، وأخذت الجهات المختصة تصدر تشريعات قانونية تسعى إلى التعامل الرحيم مع البيئة والتخفيف من الهجوم الشرس عليها، ذلك الهجوم الذي يتمثل بالاعتداء على عوالمها المختلفة، وتدنيس ما بها من ماء وهواء وأنهار وبحار وجبال وفضاء، واستنزاف ما بها من موارد نباتية وحيوانية ومعدنية وطاقة وغيرها.

وقد بدأ الاهتمام العالمي بقضايا البيئة منذ مؤتمر إستكهولم الذي عقد في عام ١٩٧٢م. وعلى الرغم من صدور العديد من التشريعات البيئية، وإنشاء العديد من المنظمات المعنية بالبيئة، فإن وضع البيئة في العالم لا يزال متردياً. فثمة مشكلات كبرى مثل: التلوث، والاحتباس الحراري، وفقدان التنوع الحيوي، وثقب الأوزون، والتغير المناخي، لا تزال تهدد

بهلاك الحرث والنسل. وترجع هذه المشكلات -في الأساس- إلى غياب البعد الأخلاقي في التعامل مع البيئة ومكوناتها، ونزعة الجشع التي يتسم بها الإنسان المعاصر، الذي يقدم مصالحه المادية على كل شيء.

والقارئ للمصادر الإسلامية، وبخاصة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، يجد أن الإسلام اعتنى عناية فائقة بالبيئة، ولم يقتصر هذا التعامل على رعايتها وحماية مكوناتها، بل امتد إلى الرفق بها، وبكل ما فيها من نباتات وحيوانات وجمادات. وقد جعل هذا الرفق جزءاً من عقيدة المسلم؛ إذ يثاب عليه في حالة قيامه به، ويعاقب عليه عند تجاوزه.

مشكلة البحث:

على الرغم من ثراء التراث الإسلامي في مجال الرفق بالبيئة وحمايتها، لا سيما في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وكتب الفقه والحسبة والطب الإسلامي، فإن الهيئات والمنظمات البيئية - بما في ذلك الموجودة في عالمنا الإسلامي - لم تلتفت إلى هذا التراث عند إعداد برامجها وتشريعاتها وخططها وسياساتها المتعلقة بحماية البيئة ومواردها. فثمة انفصال بين الجانب التطبيقي والعملي في هذه البرامج، وبين الأسس النظرية للرفق بالبيئة ومواردها في المصادر الإسلامية. ويرجع ذلك في الأساس إلى عدم إلمام العاملين في مجال البيئة بأسس التعامل الرحيم مع البيئة ومواردها في القرآن والسنة، وتقصير الدعاة الإسلاميين في تعريف الآخرين بمظاهر الرحمة بالبيئة في سيرة النبي محمد ﷺ وفي سنته الشريفة. ومن ناحية أخرى، فإن معظم الشركات والمؤسسات الصناعية في العالم أهملت البعد الأخلاقي في استخدامها للثروات البيئية؛ مما أدى إلى استنزاف ونضوب العديد منها. ومما يزيد الطين بلة، أن التعليم البيئي يركّز على الجانب المعرفي، حيث تتضمن الكتب

الدراسية والأكاديمية حشداً من المعلومات البيئية، في حين أن السلوك البيئي يكاد يكون مغيّباً وجدانيًا ومهاريًا في هذه الكتب، مما يجعل ارتباط الطلاب والمتعلمين بالقضايا البيئية في حكم الهامش!

والمتأمّل لمصادر السنة والسيرة النبوية الغرّاء يتبين له أن رسول الله ﷺ لم يكن رحمة مهداة للبشر فقط، بل إن نطاق رحمته اتسع ليشمل كل الموجودات على الأرض، بما في ذلك المكوّنات غير الحية للبيئة الطبيعية. وقد اعتنى القدامى بإبراز مظاهر رحمته ﷺ بالبشر والزرع والنسل في السلم والحرب، وبيان مدى عنايته بالبيئة الروحية للإنسان المؤمن. وإلى جانب ذلك، اعتنى بعض المحدثين بتناول صور رحمته ﷺ في مجال الرفق بالحيوان، وبمظاهر اهتمامه بالبيئة الحية ورعايته لها. ومع ذلك، فإن مجالات رحمته ﷺ بالبيئة المادية بوجه عام، وبمفرداتها المختلفة بشكل خاص، لم تحظ ببحث مستقل فيما وقع بين أيدينا من دراسات سابقة حول الإسلام والبيئة. ولهذا، فإن المشكلة التي يعالجها هذا البحث تتلخّص في الإجابة عن السؤال التالي: ما هي معالم الرحمة بالبيئة ومكوّناتها في السنة النبوية الشريفة؟

منهج البحث:

يتبع البحث المنهج الاستقرائي في المقام الأول ثم المنهج الوصفي التحليلي في المقام التالي، حيث يقوم البحث على إجراء مسح شامل للأحاديث النبوية المتعلقة بالبيئة، واستقرائها في مظانها المختلفة، لاسيما الكتب الستة[1]، واختيار ما هو مناسب منها لموضوع البحث، وبيان ما في هذه الأحاديث من أوجه الرحمة بالبيئة الطبيعية ومكوناتها، مع الاستعانة بالمصادر والمراجع الإسلامية والغربية ذات الصلة.

(١) إلى جانب الكتب الستة رجع الباحث إلى مسند أحمد، ومستدرك، الحاكم وصحيح ، الجامع الصغير والأدب المفرد (بأحكام الألباني).

الهدف من البحث:

يهدف البحث إلى ما يلي:

١. تركيز الأضواء على معالم رحمة النبي ﷺ بالبيئة الطبيعية، وتوضيح مظاهر هذه الرحمة في التعامل مع مكوّنات تلك البيئة، وذلك من خلال تجلية ما في السنة النبوية من جوانب تتعلق بالرحمة بالبيئة الحية (الحيوان والطير والزروع والنباتات)، وكشف جوانب الرحمة بالبيئة غير الحية (المتمثلة في الجمادات).

٢. توفير مادة علمية ودينية يمكن الاستفادة منها في أنشطة حماية البيئة وبرامج التوعية البيئية، وتعريف غير المسلمين بالسبق النبوي في مجال الرحمة بالبيئة.

٣. بيان أهمية تطبيق أخلاقيات الرحمة بالبيئة في سلوكيات الأفراد والمؤسسات والشركات الصناعية والتجارية على كافة المستويات الدولية والإقليمية والوطنية.

الدراسات السابقة:

هناك عدة دراسات تناولت موضوع البيئة في الإسلام، منها ما يلي:

- البيئة والإنسان: رؤية إسلامية، د. زين الدين عبدالمقصود (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).
- دراسة عن حماية البيئة في الإسلام، أبو بكر باقادر وآخرون (١٤٠٩هـ).
- البيئة من منظور إسلامي، علي علي السكري (١٩٩٤م).
- البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني، عبدالحكم الصعيدي (١٩٩٤).

- قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة، ماجد راغب الحلو (١٩٩٥م).
- قضايا البيئة من منظور إسلامي، د. عبدالمجيد النجار (١٩٩٩م).
- أضواء على مشكلة الغذاء بالمنطقة العربية الإسلامية، عبدالقادر الطرابلسي (مارس ١٩٩٩م).
- رعاية البيئة في شريعة الإسلام، د. يوسف القرضاوي (٢٠٠٦م).
- دور السنة في رعاية البيئة والمحافظة عليها، د. سعيد بن عبدالرحمن بن موسى القزقي (محرم ١٤٢٨هـ/ يناير ٢٠٠٧م).
- حماية الإسلام للبيئة، د. محمد عجاج الخطيب (دراسة منشورة على شبكة الإنترنت في موقع نسيم الشام).

وهي دراسات مفيدة في مجالها، وقد استفاد الباحث منها ومن غيرها في دراسته، كما استفاد من العديد من الدراسات التي صدرت باللغة العربية أو بالإنجليزية عن البيئة بوجه عام، وأشار إليها في هوامش البحث. وقد تميزت الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة في كونها تخصصت في موضوع الرحمة بالبيئة في السنة النبوية، وهو موضوع لم يطرق بالتفصيل في حدود قراءات الباحث حتى الآن[1].

خطة البحث:

يتكون البحث من التمهيد، والمباحث الأربع الموضحة أدناه:

المبحث الأول: الرحمة بالبيئة الطبيعية بوجه عام

المبحث الثاني: الرحمة بالبيئة الحيوانية

(١) استفاد الباحث أيضاً من دراساته التي سبق نشرها مثل: القرآن الكريم وتلوث البيئة (١٩٨٥)، والبيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث: رؤية إسلامية (١٩٩٣)، وحماية البيئة من التلوث: رؤية إسلامية (١٩٩٥)، والمحافظة على البيئة من منظور إسلامي (٢٠٠٨).

المبحث الثالث: الرحمة بالبيئة النباتية

المبحث الرابع: الرحمة بالبيئة غير الحية (الجمادات).

ثم الخاتمة التي تتضمن أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد

قد يكون من المفيد في بداية هذا البحث أن نعرّف بأهم مصطلحين تضمّنهما عنوانه، وهما: الرحمة والبيئة.

أولاً: الرحمة في اللغة والاصطلاح:

اشتقت لفظة الرحمة في العربية من رَحِم المرأة. وهي تأتي في لغتنا بعدة معانٍ أو دلالات[1]، نذكر منها:

١. الرقة والعطف على الآخرين. يقال: رحِم فلان فلاناً رحمة، ورُحْماً، ومرحمة: رقّ له وعطف عليه. وفي التنزيل العزيز: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف:٨١].

٢. المودة، فقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧]، يعني: مودة.

٣. الخير والنعمة[2] ففي التنزيل العزيز: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ [يونس:٢١].

(١) ذكر الدامغاني ١٤ وجهاً لكلمة الرحمة في القرآن الكريم فقط، وهي: الإسلام، والجنة، والمطر، والنبوة، والنعمة، والقرآن، والرزق، والنصر، والعافية، والمودة، والإيمان، والتوفيق، وعيسى عليه السلام، ومحمد ﷺ. انظر: الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، الإمام أبو عبدالله الحسين بن محمد الدامغاني، تقديم وتحقيق: عربي عبدالحميد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، صفحة ٢٢٤: ٢٢٧.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤، صفحة ٣٣٥.

٤. الإحسان. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، أي: إلا من أحسن (الله) إليه وعطف عليه[١].

والرحمة في الاصطلاح هي «حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان»[٢]، الذي يكون بالمعنوي كما يكون بالمادي. وهكذا، فالرحمة عاطفة حية تنبض بالحب والرأفة واللين والشفقة. وهي صفة عظيمة تجعل المرء يرقّ لآلام الخلق ويشعر بها وكأنها آلامه، فيسعى جاهدًا لإزالتها. وهي لذلك تُعدّ "فضيلة يتصف بها من ﷺ، وأودع في قلبه قدراً من الرقة واللين والعطف على خلقه"[٣].

ثانياً: البيئة في اللغة والاصطلاح

لم ترد كلمة (البيئة) في القرآن الكريم[٤]، وإنما جاء فعلها (باء) في قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦١، وآل عمران:١١٢]، أي رجعوا ...

ومن مراجعة فهارس الحديث النبوي الشريف يتبين أن كلمة (البيئة) لم ترد أيضاً في أي حديث من أحاديث النبي ﷺ[٥]، وإنما جاء فعلها (باء)، كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا)[٦].

(١) المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، د. أحمد مختار عمر، مؤسسة سطور المعرفة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، صفحة ٢٠٣.

(٢) الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، مقابلة وإعداد وفهرسة: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص ٤٧١.

(٣) مصطلحات علوم القرآن، د. عبدالحليم عويس وآخرون، دار الوفاء، المنصورة، ج٢، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، صفحة ٢٠٨.

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي؛ مؤسسة جمال للنشر، بيروت، بدون تاريخ، صفحة ١٣٩.

(٥) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، أ. ي. ونسنك؛ مطبعة بريل، ليدن، ١٩٣٦م، الجزء الأول، صفحة ٢٢٨.

(٦) رواه الشيخان. انظر: الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح =

وجاء في المعجم الوسيط: «البِيئةُ: المنزل. والبِيئةُ: الحال. ويقال: بيئة طَبيعيَّةٌ، وبيئة اجتماعيَّة...»[١]. وفي (اللسان): «ويقال: إنه لحسن البيئة، أي: هيئة التبوّء»[٢]، بمعنى كيفية استقصاء مكان النزول وموضعه. وفي (تاج العروس): باء إليه: رجع... وبوّأه منـزلاً، وبوأ فيه وبوأه له بمعنى هيأه له: أنزله ومكن له فيه... ويقال تبوّأ فلان منـزلاً إذا نظر إلى أحسن ما يرى وأشده استواء وأمكنه لمباءته فاتخذه. وتبوأ: نزل وأقام»[٣]. وقد عرّفت موسوعة فان نوستراند العلمية البيئة بأنها: «مجموعة الظروف والعوامل المادية المحيطة بالكائن الحي ومكوناته»[٤]. وهناك من الباحثين من عرّفها بأنها: «الإطار الذي يعيش فيه الإنسان، ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر»[٥]. أمّا (ي. ك. سنغ Y. K. Singh) فقد عرّفها بأنها هي: "الظروف الخارجية المحيطة المؤثرة في نمو الناس والحيوانات والنباتات، والمؤثرة أيضاً في مجمل حياتهم وأنشطتهم"[٦].

ويرى الباحث أن البيئة هي كل ما يحيط بالإنسان من جمادات

= البخاري)، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، شرح وتحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، كتاب الأدب، باب من كفّر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، رقم الحديث: ٦١٠٣، المكتبة السلفية، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ، ج ٤، صفحة ١١٠. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، يحيى بن شرف النووي، كتاب الإيمان، رقم الحديث: ١١١-٦٠، مؤسسة قرطبة، الجيزة، ط٢، ١٤١٤هـ، ج ٢، صفحة ٦٤: ٦٥.

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤، صفحة ٧٥.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، المجلد الأول، ج ٥، صفحة ٣٨٢.

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، الجزء الأول، صفحة ١٥٢: ١٥٨.

(٤) Van Nostrand's Scientific Encyclopedia، Douglas M. Considine (Editor)، Van Nostrand Reinhold Company، New York، U. S. A، 1976، Page 961.

(٥) البيئة ومشكلاتها، رشيد الحمد ومحمد صباريني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٩، صفحة ٢٦.

(٦) Environmental Science، Y. K. Singh، New Age International (P) Limited، New Delhi، 2006، Page 1.

(كالهواء والماء والتربة والجبال والإنشاءات والطاقة)، وأحياء (حيوانية ونباتية)، وظواهر طبيعية (كالرعد والبرق والرياح).

والبيئة في الإسلام مِلْك لله وخَلْقٌ مِن خَلقه، تسري عليها السنن الكونية، فهي تسبّح لله، وهي ذات أمدٍ محدود، ونحن مستخلفون فيها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولهذا، يجب أن تكون العلاقة بين الإنسان وبينها وبين مواردها علاقة تتسم بالتعقّل والتوازن، فلا إفراط ولا تفريط. ولتحقيق التوازن البيئي المنشود لا بدّ من الالتزام بأخلاقيات الرحمة والرفق والإحسان من قبل الإنسان، بحيث يتم التعامل مع البيئة ومكوناتها من شجر وحجر وحيوان من منطلق مسؤولية كل امرئ عن كل ما يفعله؛ إذ يثاب خيراً إن أحسن واقتصد، ويجازى شراً إن أساء وظلم.

وما مأساة البيئة في عالمنا المعاصر إلا نتيجة طبيعية للخلل الذي أحدثه الإنسان في التوازن البيئي، وهو خلل ناجم أساسا عن أزمة الأخلاق والقيم، التي تتمثل في انتشار حالات الجشع والطمع وعدم الشعور بالمسؤولية تجاه بيئة الأرض التي نعيش فيها وما فيها من أحياء.

المبحث الأول
الرحمة بالبيئة الطبيعية بوجه عام

اهتم الإسلام بموضوع البيئة، وأكّد على رعاية كلّ مكوّناتها والرفق بها. فعلى الإنسان أن يكون رحيماً معها، فلا يجافي سنن الله في خلقه في تعامله معها، بل يعطيها كما يأخذ منها، ويرعى لها حقوقها لتؤتي له حقه. وتتضمن تلك الرحمة قيامه بعمارة الأرض بالغرس والزرع والبناء وإحياء الموات والبعد عن كل فساد وتدمير، والمحافظة على الثروات الزراعية والحيوانية، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

ومن هذا المنطلق تأتي رعاية البيئة في قمة أولويات مقاصد الشريعة الإسلامية. فهذه الرعاية تستهدف الحفاظ على ضرورتين من ضرورات الحياة: النفس والمال؛ إذ إن فساد البيئة ينعكس سلباً على صحة الإنسان وعلى سلامة الموارد الطبيعية من حرث ونسل ومعادن وطاقة وصحارى وبحار. ونصوص كل من القرآن الكريم والسنة النبوية غنية جداً بالتعاليم التي تحثّ على رعاية البيئة وحمايتها بعدم إفساد الأرض بعد إصلاحها، أو إلحاق الأذى بأحيائها ومواردها.

وقد التفت القدماء إلى عناية النبي ﷺ برحمة الحيوان والرفق به، فحظي هذا الموضوع باهتمام مصنفي كتب الحديث النبوي، حتى

أنهم بوّبوا لجملة من الأحاديث التي تتعلق بذلك في مصنفاتهم. فعلى سبيل المثال نجد الإمام البخاري يقول في صحيحه: (باب رحمة الناس والبهائم). وجاء في صحيح ابن حبان: (ذكر استحباب الإحسان إلى ذوات الأربع، رجاء النجاة في العقبى بها) أو (ذكر الزجر عن ترك تعاهد المرء ذوات الأربع بالإحسان إليها). أما سعيد بن منصور فقد خصّص في سننه باباً عنونه بقوله: (باب ما جاء في الرفق بالبهائم في السير). ومثل ذلك كثير في كتب الحديث، وهو لا يقتصر فقط على الحيوان، بل يشمل النباتات والجمادات أيضاً.

والمطالع للقرآن الكريم وكتب السنّة النبوية الشريفة يجد أنهما يتضمنان عدداً كبيراً من النصوص التي تحضّ على احترام البيئة الطبيعية ومكوناتها، ومنع العبث بكل معلم من معالمها أو عوالمها، والنظر برحمة إلى ما فيها من بشر وشجر ومدر ووبر وحجر وحيوان وطير وماء وهواء ومبان وأسواق، وحتى مرافق الخلاء وأماكن الراحة، على نحو ما سنوضحه بالتفصيل بعد ذلك في هذا البحث.

ومن الأمثلة على عناية مصادر الشريعة الإسلامية بالمحافظة على سلامة البيئة ما ذكره القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦ و٨٥]، فقد قال "إنه ﷻ نهى عن كل فساد قل أو كثر بعد صلاح قل أو كثر. . . وقال الضحاك: معناه لا تغوروا الماء المعين، ولا تقطعوا الشجر المثمر ضراراً"[1]. فالنهي عن الفساد في الأرض يتضمن عدم الإضرار بمواردها المائية والنباتية والحيوانية. كما أنه يتضمن أيضاً العمل بواجبات الاستخلاف، فقد قال النبي ﷺ: (إِنَّ

(١) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، الجزء التاسع، صفحة ٢٤٩.

الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟)[1]. وكون الدنيا حلوةً خضرة يعني -فيما يعني- أن بيئتها الطبيعية تروق الناظرين في رونقها وحسنها، وأن الله جعل زينتها ابتلاء للعباد وامتحاناً لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف:٧]. كما يمكننا أن نقول: إن إبقاءها حلوة خضرة على حالتها التي جعلها الله عليها هو لون من العمل الحسن الذي يتوجب على الإنسان القيام به في إطار مهام الاستخلاف.

ويفهم من نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية أن بين الإنسان والبيئة علاقة نسب وأخوة، فالأول خُلق من تراب الأرض، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج:٥]، وقال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧]، وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: (أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ...)[2]. وخَلْق الإنسان من تراب الأرض من شأنه أن يولّد في النفس ثقافة الأخوة والتراحم

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الرقاق، رقم الحديث: ٩٨ - (٢٧٤٢)، ج ١٧، صفحة ٨٧.

(٢) أخرجه أبو داود، والترمذي كما أخرجه الطحاوي في (مشكل الآثار)، والطبراني في معجمه الكبير. وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريب. والحديث حسّنه الألباني في أحكامه على سنن أبي داود، والترمذي وحسنه الألباني أيضاً في (صحيح الجامع الصغير) وفي (صحيح الترغيب والترهيب). انظر: سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، حكم على أحاديثه وآثاره: محمد ناصر الدين الألباني، كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأحساب، رقم الحديث: ٥١١٦، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٧هـ، صفحة ٩٢٦. وانظر: سنن الترمذي، الإمام محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، حكم على أحاديثه وآثاره: محمد ناصر الدين الألباني، كتاب المناقب، باب في فضل الشام واليمن، رقم الحديث: ٣٩٥٥، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ، صفحة ٨٨٥. انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت/ دمشق، ط٣، ١٤٠٨هـ، رقم الحديث: ١٧٨٧ - ٧٩٢، المجلد الأول، صفحة ٣٦٧: ٣٦٨. وجاء في (مجمع الزوائد): فيه محمد بن عياش، وفيه ضعف. وثمة رواية أخرى للحديث رواها البزار: عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: (كلكم بنو آدم، وآدم من تراب. لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان)، وقال الهيثمي عن سند هذه الرواية: "وفيه الحسن بن الحسين العرني، وهو ضعيف». انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، كتاب الأدب، باب فيمن افتخر بأهل الجاهلية، رقم الحديث: ١٣٠٨٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ج ٨، صفحة ١٠٧.

بين الإنسان والبيئة، تلك الثقافة التي تنتفي منها معاني العداء والصراع والمغالبة والعنف والتدمير، لتسود معاني المحبة والرأفة والمحافظة والصيانة، وذلك ما أشار إليه حديث نبوي قال فيه النبي ﷺ في جبل أحد لما بدا له: (هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ)[1].

وهذا الارتباط المتبادل بين الإنسان وعناصر البيئة، يعني أن الإنسان إذا أساء استخدام عنصر من عناصر البيئة الطبيعية أو استنزفه استنزافًا، فإن العالم برُمّته سوف يُضَارُّ أضرارًا مباشرة، ومن ثَمّ فقد وضع رسول الله ﷺ قاعدة عامّة لكل البشر الذين يحْيَوْنَ على ظهر الأرض، وهي عدم إحداث ضرر من أي نوع لهذه البيئة أو مكوناتها، فقال ﷺ: (لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ)[2].

وثمة أحاديث نبوية تناولت الرحمة، ولم تقصرها على فئة معينة من المخلوقات، بل جاءت بصيغة العموم لتشمل كل ما في بيئة الأرض وما يدبّ عليها أو يطير في هوائها. ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي

(١) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الحيس، رقم الحديث: ٥٤٢٥، الجزء الثالث، صفحة ٤٤٠. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحج، رقم الحديث: ٤٦٢ - (١٣٦٥)، الجزء التاسع، صفحة ١٩٧.

(٢) سنن ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: د. بشار عواد معروف، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، رقم الحديث: ٢٣٤٠، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨ م، ج ٤، صفحة ٢٧. وأخرج الحديث أيضاً: أحمد والدارقطني والطبراني في الأوسط وغيرهم، وذلك عن عدد من الصحابة. وقال البوصيري في الزوائد: «رجاله ثقات إلا أنه منقطع لأن إسحاق بن الوليد قال الترمذي وابن عدي: لم يدرك عبادة». انظر: سنن ابن ماجه بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندي، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ج ٣، ط١، ١٤١٦هـ، صفحة ١٠٦. والحديث حسن، وممن حسّنه ابن الصلاح؛ حيث قال: «هذا الحديث أسنده الدارقطني من وجوه ومجموعها يقوي الحديث ويحسنه». وقد قوّى الحديث الإمام النووي رحمه الله في الأربعين النووية فقال: «له طرق يقوي بعضها بعضا». انظر: كتاب الأربعين النووية، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، خرّج أحاديثه وشرح غريبه: أحمد عبدالرازق البكري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٤، ١٤٢٨هـ، صفحة ٢٤: ٢٥. وانظر: جامع العلوم والحكم، عبدالرحمن بن شهاب الدين زين الدين أبو الفرج ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ، ج ٢، صفحة ٢١٠.

غلبتْ غَضَبِي)[1]، وَفِي رواية أخرى عند مسلم: (سبَقتْ رحْمتي غضبي)[2]. فهذا إعلان واضح يؤكد على أن الرحمة بكل مخلوقات الله -بما فيها البيئة ومكوناتها- مقدّمة على الغضب، وأن الرفق مقدّم على الشدة.

ومن صور الرحمة الإلهية بالمخلوقات التي تعيش في البيئة معنا، والتي بيّنها لنا الحديث النبوي، أن الله أنزل من السماء جزءاً واحدا من رحمته إلى الأرض، لكي تتراحم به هذه المخلوقات فيما بينها. فعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: (جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا؛ خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ)[3]. فهذا الحديث النبويّ الشريف يوضح لنا جانبًا من جوانب الرحمة المهداة، إذ يفهم من سياق الحديث حرص النبي ﷺ صط على تذكير أتباعه بمنزلة الرحمة، وبيان أنها ليست خلُقا جمالياً تكميليا، بل هي أمر واجب. كما أن الحديث يؤكد على أهمية التراحم في بيئة الأرض. ولعل التنويه برحمة الفرس بولدها إشارة لطيفة إلى التراحم بين الحيوانات التي تستوطن البيئة. والأهم من ذلك هو إبراز مدى حاجة الإنسان إلى تطبيق خُلُق التراحم مع المخلوقات الأخرى في بيئة الأرض، على نحو ما نراه جليّا في قوله ﷺ: (مَن لا يَرحم لا يُرحَم)

(١) متفق عليه. انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، رقم الحديث: ٣١٩٤، ج ٢، صفحة ٤١٩. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب التوبة، رقم الحديث: ١٦ - (٢٧٥١)، ج ١٧، صفحة ١٠٦.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب التوبة، رقم الحديث: ١٥ - (٢٧٥١)، ج ١٧، صفحة ١٠٦.

(٣) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، رقم الحديث: ٦٠٠٠، ج ٤، صفحة ٩١: ٩٢. وانظر: أيضاً: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب التوبة، رقم الحديث: ١٧ - (٢٧٥٢)، ج ١٧، صفحة ١٠٧.

[1]، وقوله كذلك: (وإنَّما يرْحم اللَّه مِنْ عباده الرحماءَ)[2]، وقوله أيضاً (الرَّاحمونَ يرحمُهم الرَّحمنُ. ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)[3]. وكلمة (مَن) الأولى في الحديث الأخير تشمل كل من يعيش في بيئة الأرض.

وقد كان النبي ﷺ يدرك أهمية العناية بالبيئة، فعلّمنا أن الإنسان خليفة الله على الأرض، وحقٌّ على الخليفة أن يترفّق بما أستخلف فيه، ويستثمر ما خُلق له وهيئ من أجله من دون إسراف أو جور أو تدمير أو إفساد. فقال ﷺ: (مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إلا زَانَهُ، وَما نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إلا شَانَهُ)[4].

كما كان النبي ﷺ يعلِّم الناس أن الرفق صفة من صفات الله ﷻ، ومظهر من مظاهر رحمته ﷻ، فقال ﷺ: (إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كلِّه)[5]، وقال أيضاً: (إنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى سِوَاهُ)[6].

وإذا كان الرفق بالبيئة خُلُق كريم حثّ عليه النبي ﷺ، فإن الارتفاق البيئي نهْجٌ دعا النبي ﷺ إلى اتباعه في تعاملنا مع البيئة ومكوناتها.

(١) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم الحديث: ٥٩٩٧، ج ٤، صفحة ٩١. وانظر: أيضاً: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفضائل، رقم الحديث: ٦٥ - (٢٣١٨)، ج ١٥، صفحة ١١١.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببكاء بعض أهله عليه، رقم الحديث: ١٢٨٤، ج ١، صفحة ٣٩٦. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الجنائز، رقم الحديث: ١١ - (٩٣٢)، ج ٦، صفحة ٣١٨: ٣١٩.

(٣) أخرجه الحميدي وأحمد وابن أبي شيبة وأبو داود والدارمي والطبراني والبيهقي، وصححه جمع منهم الحاكم، وكذا الألباني في السلسلة الصحيحة. كما رواه الترمذي، وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. انظر: سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في رحمة الناس، رقم الحديث: ١٩٢٤، صفحة ٤٣٩.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة والآداب، رقم الحديث: ٧٨ - (٢٥٩٤)، الجزء السادس عشر، صفحة ٢٢١.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم الحديث: ٦٠٢٤، الجزء الرابع، صفحة ٩٥: ٩٦.

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة والآداب، رقم الحديث: ٧٧ - (٢٥٩٣)، الجزء السادس عشر، صفحة ٢٢٠.

والارتفاق مصطلح مأخوذ من مادة (رفق)، وهو يجمع بين معنيي الانتفاع والتلطف. ونعني بالارتفاق البيئي استثمار ما في البيئة من موارد نباتية وحيوانية وجمادات، والانتفاع بها، ولكن في رفق يحافظ عليها من الفساد أو الضرر أو الأذى. فعلينا أن ننتفع بما سخره الله لنا في البيئة، ولكن في إطار الرحمة بما ذلّله الله لنا. وقد جاء في حديث نبوي شريف أن (رَكِبَتْ عَائِشَةُ بَعِيرًا، فَكَانَتْ فِيهِ صُعُوبَةٌ فَجَعَلَتْ تُرَدِّدُهُ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ)[1]. ونموذج الارتفاق البيئي الواضح في بعير عائشة رضي الله عنها، يمكن تعميمه على كل ما في البيئة من مخلوقات.

وعليه، يمكننا أن نقول: إن هذا الجانب الأخلاقي المتميز المستنبط من حديث نبيّ الرحمة ﷺ مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، يعني أن المسلم أمين على بيئة كوكبنا الأرضي، ومن حقه -كمستخلف فيها- أن يستفيد منها ومما فيها في إطار (لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ)[2]، وفي الوقت نفسه فإنه يكون حريصًا على ألا يكون مفسدا فيها، أو أن يكدِّر صفوها بأن يستغل عناصرها أو أحياءها في غير ما أمَرَ الله وأراد. وعلى المسلم أن يشعر بالغضب والأسى لأي سلوك غير رحيم بالبيئة، كأن يقع اعتداء في حالة حرب أو سلم على غابة خضراء أو ماء طاهر أو هواء نقي أو أمة من أمم الحيوان أو الطير. وما الكوارث البيئية التي تعاني منها الأرض حاليا (كالاحتباس الحراري والتغيرات المناخية وتلوث البيئة) إلا مظهر من مظاهر الإخلال بنهج الارتفاق البيئي، حيث يقوم البشر باستهلاك موارد البيئة بشكل مسرف وضارّ بالبيئة وأحيائها وجماداتها، بل بأنفسهم أيضاً.

(١) المرجع السابق، كتاب البر والصلة والآداب، رقم الحديث: ٧٩ - (٢٥٩٤)، الجزء السادس عشر، صفحة ٢٢١.

(٢) سبق تخريجه.

المبحث الثاني
الرحمة بالبيئة الحيوانية

تسهم موارد البيئة الحيوانية في توفير الغذاء للأنواع المختلفة من الأحياء بما في ذلك الإنسان. فالأنعام والدواجن والأرانب والحمام -على سبيل المثال- لها دورها في التنمية الاقتصادية وتحقيق الأمن الغذائي للمجتمعات البشرية. والظباء والأيائل والأرانب البرية لها أهميتها في غذاء المفترسات من الضواري كالأسود والفهود والنمور. ولكن موارد البيئة الحيوانية تتعرّض لضغوط متزايدة من قبل الإنسان المعاصر[١]. فالطلب الحضريّ على اللحوم والألبان والبيض يتزايد، ويؤدي إلى تآكل التنوع الوراثي للأبقار والدواجن والأغنام والماعز والأسماك، وانقراض بعض السلالات الحيوانية المحليّة المتميزة التي استطاعت أن تتكيف مع الظروف البيئية والمناخية لقرون عديدة. وفضلاً عن ذلك، فإن هذه الضغوط الناجمة عن المشكلات البيئية -مثل التلوث والتغير المناخي- تتسبب في تهيئة الظروف المواتية لانتشار مسببات الأمراض من الطفيليات والفيروسات؛ مما يؤدي إلى الإصابة بأمراض حيوانية خطرة وانتشارها (مثل جنون البقر، وإنفلونزا الطيور)[٢]. ومن ناحية أخرى، فإن الأحياء

(١) Wildlife Ecology and Forest Habitat، Janean H. Creighton and David M. Baumgartner، College of Agriculture and Home Economics: Washington State University، Washington، 1997، Page 3: 14.

(٢) The epidemiology and evolution of influenza viruses in pigs، Veterinary Microbiology، Volume 74، 2000، Page 29: 31.

البرية (كالفيلة ووحيد القرن والدببة) مهددة بالانقراض من جراء تدمير موائلها الطبيعية، وعمليات قنصها وقتلها، والتلوث البيئي[١]. ولم يخلق الله هذه الأحياء عبثا، فلكل منها فوائد قد نعرفها، وقد لا نعرفها. وما يزال العاملون في مراكز الأبحاث يكتشفون أدوية جديدة من السلالات الحيوانية الغريبة التي توجد في البيئات البعيدة عن تدخل البشر، مثل الغابات المطيرة، والصحارى النائية[٢].

ومن قبل اهتمام المنظمات البيئية بالمحافظة على الأنواع الحيوانية، حثّت السنة النبوية على ذلك، من خلال دعوة الرسول ﷺ إلى الرفق بالحيوانات، وجعل ذلك جزءا من عقيدة المسلم، يثاب عليه بنوال مغفرة الله والفوز بالجنة إذا أحسن للحيوان، ويجازى شرا إن أساء إليه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ، كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا، فَسَقَتْه، فَغُفِرَ لَهَا بِه)[٣]. وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: (عُذِّبَت امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ)[٤]. فمراعاة خُلُق الرحمة مع حيوان أعجم كالكلب أحد موجبات دخول جنة الخلد. وفي المقابل، فإن القسوة مع حيوان ضعيف كالهرة يُعَدّ أحد موجبات دخول النار في الحياة الآخرة.

(١) Species Extinction: The Facts، The International Union for Conservation of Nature (IUCN)، Gland، Switzerland، 2008، Page 1: 4.

(٢) Economic and Environmental Benefits of Biodiversity، David Pimentel et al. ، BioScience، Volume 47، No. 11، Dec. ، 1997، Pages 747: 757.

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب رقم ٥٤، رقم الحديث: ٣٤٦٧، ج ٢، صفحة ٤٩٧. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، رقم الحديث ١٥٤- (٢٢٤٥)، ج ١٤، صفحة ٣٤٨. ويطيف: يدور. وركيَّة: بئر ذات ماء، لم تطو. والموق: الخفّ.

(٤) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب رقم ٥٤، رقم الحديث: ٣٤٨٢، ج ٢، صفحة ٥٠٠. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، رقم الحديث: ١٥١ - (٢٢٤٢)، ج ١٤، صفحة ٣٤٤.

وقد تعددت صور الرفق بالبيئة الحيوانية في أحاديث نبي الرحمة ﷺ. ومن هذه الصور ما يلي:

١. المحافظة على التنوع الحيوي للحيوانات بمختلف أنواعها:

يقصد بالتنوع الحيوي: تعدد أنواع الأحياء الموجودة في كوكبنا الأرضي من الحيوانات والنباتات، والكائنات الحية الدقيقة، وتعدد النظم التي تعمل بها هذه الأنواع(١).

والمحافظة على التنوع الحيوي للحيوانات نوع من أنواع الرحمة التي حرص الإسلام على إيجادها وإشاعتها في المجتمع الإسلامي. فكل نوع من الأحياء له دوره في السلسلة الغذائية للحيوانات(٢). وأي خلل في هذه السلسلة يضر بمكوناتها، ويحرم بعض الأنواع من قوتها. كما أنه يحرم البشر من الانتفاع من فوائد هذا النوع.

ولم ينتبه العالم إلى أهمية المحافظة على التنوع الحيوي للحيوانات إلا في ثمانينيات القرن العشرين، وذلك بعد أن تسببت الممارسات الخاطئة للإنسان في إبادة أنواع عديدة من الأحياء الحيوانية وانقراضها تماما من الحياة البرية. ومن المدهش أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أشارا إلى التنوع الحيوي منذ أكثر من أربعة عشر قرنا. ولعل في قصة سيدنا نوح عليه السلام في القرآن الكريم أول إشارة إلى أهمية الحفاظ على

(١) التنوع الأحيائي، د. عبدالحكيم بدران، الجمعية الكويتية لحماية البيئة، الكويت، سبتمبر ١٩٩٥م، صفحة ٨: ١١.

(٢) تدعى العلاقات التي تربط الكائنات الحية بعضها ببعض بالسلاسل الغذائية Food Chains، حيث تبين هذه السلاسل الآكل والمأكول من الحيوانات. والملاحظ أن كل سلسلة غذائية تتألف من نباتات خضراء وحيوانات مستهلكة لها، وحيوانات مفترسة لهذه المستهلكات. فالفأر مثلا يأكل النباتات، والأفعى تأكل الفأر، والحدأة تأكل الأفعى. وعند موت الحدأة تأكلها الحيوانات الرمّية. ويسمى هذا مثلًا - أن يقصّر من طول السلسلة الغذائية بأن يتغذى على الأعشاب، ولا يستطيع الصقر كذلك أن يقصر من هذه السلسلة ويتغذى على أوراق الأشجار. انظر: البيئة ومشكلاتها، مرجع سابق، صفحة ٥٩: ٦٢.

التنوع الحيوي، فقد أمره الله ﷻ أن يأخذ معه في الفلك من كل زوجين اثنين. قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَ ﴾ [هود:٤٠]. وقد نهى النبي ﷺ عن إفناء أمم الطير والحيوان، حتى لو كان ذلك للكلاب؛ حفاظاً على التنوع الحيوي. فعن عبدالله بن مغفل أنه ﷺ قال: (لَوْلاَ أَنَّ الكِلاَبَ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا كلها، فَاقْتُلُوا منها كُلَّ أَسْوَدَ بَهِيمٍ)[1]. وما ينطبق على أمّة الكلاب ينطبق على سائر أمم الحيوان، فلا يتم قتل أحد منها إلا في حالة الدفاع عن النفس، أو ما كان مؤذياً منها.

٢. النهج الرحيم في التعامل مع الموارد الحيوانية المباح أكلها:

أباح الشرع أكل بهيمة الأنعام، والدجاج، وصيد البحر، والأرنب، وغيرها. أما الأحياء الفطرية، فقد أباح النبي ﷺ منها أكل الجراد والحمار الوحشي. فعَنْ ابْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه قَالَ: (غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ أَوْ سِتًّا كُنَّا نَأْكُلُ مَعَهُ الْجَرَادَ)[2]. وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ: (... قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَصَبْتُ حِمَارَ وَحْشٍ، وَعِنْدِي مِنْهُ فَاضِلَةٌ؟ فَقَالَ -أي النبي ﷺ- لِلْقَوْمِ: كُلُوا، وَهُمْ مُحْرِمُونَ)[3]. وأباح ﷺ أيضاً أكل الضب، مع أنه لم يأكله، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قال النَّبِيُّ ﷺ: (الضَّبُّ لَسْتُ آكُلُهُ، وَلَا أُحَرِّمُهُ)[4]. وهذه الأنواع من الحيوانات، مثلها

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجع وأحمد وأبو عوانة في مستخرجه والدارمي وابن أبي شيبة والطحاوي في مشكل الآثار وغيرهم. وقَالَ أبو عيسى: "حَدِيثٌ عبدالله بن مغفل حديث حَسَنٌ صَحِيحٌ». والحديث صححه الألباني. انظر: سنن الترمذي، كتاب الصيد عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، باب مَا جَاءَ في قتل الكلاب، رقم الحديث ١٤٨٦، صفحة ٣٥٢. و(بهيم) أي: خالص السواد.

(٢) رواه الشيخان، انظر: صحيح البخاري، كِتَاب الذَّبَائِحِ وَالصَّيْدِ، بَاب أَكْلِ الْجَرَادِ، رقم الحديث: ٥٤٩٥، ج ٣، صفحة ٤٥٦. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، رقم الحديث: ٥٢ - (١٩٥٢)، ج ١٣، صفحة ١٥٢.

(٣) صحيح البخاري، كِتَاب جزاء الصَّيْدِ، بَاب إِذَا صَادَ الْحَلَالُ فَأَهْدَى لِلْمُحْرِمِ الصيدَ أَكَلَه، رقم الحديث: ١٨٢١، ج ٢، صفحة ٨: ٩.

(٤) رواه الشيخان، انظر: صحيح البخاري، كِتَاب الذَّبَائِحِ وَالصَّيْدِ، بَاب الضب، رقم الحديث: ٥٥٣٦، ج ٣، صفحة ٤٦٣. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصيد والذبائح، =

مثل بهيمة الأنعام والدواجن والأرانب، من الأحياء الحيوانية التي تتكاثر بأعداد كبيرة. وفي الأغلب الأعم، فإنه لا يُخشَى إفناؤها. فإن حدث، وأسرف الناس في صيدها، بحيث أصبحت على شفا الانقراض، فهنا تتم مراعاة البند السابق الخاص بالمحافظة على التنوع الحيوي.

وفي هذا السياق فإن تعاليم السنة النبوية تنهج نهجاً وسطاً ورحيمًا في التعامل مع الموارد الحيوانية المباح أكلها. فهي لا تحبذ الإسراف في القتل عبثاًظ، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: (لا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوح غَرَضًا)[1]، أي: نهى عن تثبيت أي حيوان وجعله هدفًا للتدريب على الرماية والقنص! كما (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُصْبَرَ الْبَهَائِمُ)[2]؛ أي: تحبس حتى تموت. ولا تتخذ هذه التعاليم سبيل بعض المهووسين بحماية البيئة ممن يقيمون الدنيا ولا يقعدونها بسبب ذبح المسلمين للخراف في عيد الأضحى. ولا تجنح تعاليم السنة النبوية إلى قبول قول جماعات الرفق بالحيوان التي تدعو إلى منع قتل الحيوانات بالكلية تذرّعًا بحماية حقوقها.

٣. الحث على الرفق بالحيوان:

يعود اهتمام العالم الغربي بموضوع الرفق بالحيوان إلى عام ١٨٢٢، حيث أسفرت جهود الأيرلندي ريتشارد مارتين Richard Martin، عضو البرلمان الإنجليزي، وقتذاك، عن صدور القانون الذي حمل اسمه (قانون

= رقم الحديث: ٣٩ - (١٩٤٣)، ج ١٣، صفحة ١٤٣. والضَّبّ: حيوان من جنس الزواحف من رتبة العَظَاء، غليظ الجسم خشِنُه، وله ذَنَبٌ عريضٌ حَرِش أَعْقَدُ، يكثر في الصحاري. انظر: المعجم الوسيط، صفحة ٥٣٢.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، كتاب الصيد والذبائح، رقم الحديث: ٥٨ م - (١٩٥٧)، ج ١٣، صفحة ١٥٩.

(٢) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، رقم الحديث: ٥٥١٣، الجزء الثالث، صفحة ٤٦٠. وانظر: أيضاً: صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، كتاب الذبائح وما يؤكل من الحيوان، رقم الحديث: ٥٨ - (١٩٥٦)، الجزء الثالث عشر، صفحة ١٥٨. وصبر البهائم: أن تحبس وهي حية لتقتل بالرمي ونحوه.

مارتين Martin›s Act)، والذي يجرم الاعتداء على المواشي والأغنام والخيل والبغال والحمير. وقد استثنى القانون الثيران من المعاملة الرحيمة[١]. وبعد ذلك بعامين (في عام ١٨٢٤م) تم تأسيس أول جمعية للرفق بالحيوان في بريطانيا، وهي الجمعية الملكية لحماية الحيوان[٢]. وقد أُلغِي قانون مارتن بموجب قانون آخر صدر في سنة ١٨٤٩م وشمل كل الحيوانات[٣]. وفي سنة ١٨٦٦ م أسس هنري برج Henry Bergh جمعية أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية لرعاية الحيوانات الضالة ومساعدة المزارعين على رعاية المواشي بتوعيتهم صحيًا[٤]. وبعد ذلك، انتشرت جمعيات الرفق بالحيوان في معظم دول العالم.

والمطلع على السنة النبوية يجد أن مفهوم الرحمة بالحيوان كان من بين مكارم الأخلاق التي بُعِث النبي ﷺ ليتممها. وقد تعددت صور هذه الرحمة في السنة النبوية، ومن ذلك: عدم السماح بالقسوة في التعامل مع الحيوانات، أو تكليفها بما يشقّ عليها، أو العبث بها، أو إيذائها بضربها. وقد نهى النَّبِيُّ ﷺ عن قتل الحيوانات والطيور عبثاً، فعن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ، فَمَرُّوا بِفِتْيَةٍ، أَوْ بِنَفَرٍ نَصَبُوا دَجَاجَةً يَرْمُونَهَا، فَلَمَّا رَأَوُا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا عَنْهَا، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: (مَنْ فَعَلَ هذا؟ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ مَنْ فَعَلَ هذا)[٥].

ومن الرفق والرحمة بالحيوان عدم إزعاجه في عشه ليلاً. فعن أم

(١) The Rights of Persons According to the Text of Blackstone: Incorporating the Alterations Down to the Present Time، Sir William Blackstone and James Stewart، Edmund Spettigue، Law Book-seller And Publisher، London، 1839، Page 79.

(٢) http: //www. animalethics. org. uk/i-ch6-4-martin. html

(٣) How to Do Animal Rights Legally، with Confidence، Ben Isacat، Oxford، Britain، 2013، Page 165.

(٤) Friend of Animals: The Story of Henry Bergh، Mildred Mastin Pace، New York: Charles Scribner's Sons، 1942، Page 145.

(٥) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، رقم الحديث: ٥٥١٥، ج ٣، صفحة ٤٦٠. وانظر: أيضاً: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الذبائح، رقم الحديث: ٥٩ – (١٩٥٨)، ج ١٣، صفحة ١٥٩.

كرز قالت: أتيت النبيّ ﷺ فسمعته يقول: (أقرّوا الطير على مكناتها). وفي رواية (... في وكناتها)[1].

ومن الرفق والرحمة به أيضاً عدم تصريته بحبس اللبن في ضرع الأنثى، تمهيداً لبيعها؛ إذ إن هذا السلوك يؤذي الحيوان. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (لَا تُصَرُّوا الْإِبِلَ وَالْغَنَمَ...)[2].

٤. الاهتمام برعاية صغار الحيوانات وحمايتها:

شملت الرحمة النبوية بالحيوانات حماية صغار الحيوانات والمحافظة عليها وإتاحة الفرصة لها للنمو والحياة. ومن الأحاديث النبوية التي تتعلق بذلك ما رواه عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه، حيث قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلقَ لحاجته، فرأينا حُمَّرةً معها فَرخان، فأخذنا فرخَيْها، فجاءت الْحُمَّرة، فجعلت تُفَرّش (تُعَرِّش)، فجاءَ النبيُّ ﷺ فقال: (مَنْ فَجَعَ هذه بِوَلَدِها؟ ! رُدُّوا وَلَدَها إليها)[3]. فسؤاله ﷺ عن هوية الصحابي الذي

(١) أخرجه أحمد في مسنده، والطبراني في (المعجم الكبير) وأبو نعيم في (الحلية)، وابن حبان في صحيحه، والحميدي في مسنده، وغيرهم. كما رواه الحاكم في مستدركه وصححه وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه". انظر: المستدرك على الصحيحين في الحديث وفي ذيله تلخيص المستدرك للإمام الذهبي، الحافظ الكبير أبو عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بالحاكم النيسابوري، كتاب الذبائح، ج ٤، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدرأباد الدكن (الهند)، الطبعة الأولى، ١٣٤٠ ه، صفحة ٢٣٧: ٢٣٨. وقال الذهبي عن هذا الحديث: «تفرد به عبيدالله ابن أبي يزيد المكي، وله علة». وقال الهيثمي: «رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها ثقات». انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مرجع سابق، كتاب الطب، باب أقروا الطير على مكناتها، رقم الحديث: ٨٤٢٠، ج ٥، صفحة ١٢٨.

(٢) رواه الشيخان، صحيح البخاري، كتَاب البيوع، باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل والبقر والغنم وكل محفلة، رقم الحديث: ٢١٤٨، ج ٢، صفحة ١٠٢. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كِتَاب البيوع، رقم الحديث: ١١ – (١٥١٥)، ج ١٠، صفحة ٢٢٤: ٢٢٦.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم الحديث: ٢٦٧٥، صفحة ٤٧٠. وجاء في (عون المعبود): «قَالَ الْمُنْذِرِيُّ: ذَكَرَ الْبُخَارِيّ وَعَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي حَاتِم الرَّازِيُّ أَنَّ عَبْد الرَّحْمَن ابْن عَبْد اللَّه بْن مَسْعُود سَمِعَ مِنْ أَبِيه، وَصَحَّحَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن عَنْ أَبِيه فِي جَامِعه. انْتَهَى. . . وأخرج أبو داود الطيالسي والحاكم، وقال: صحيح الإسناد عن ابن مسعود رضي الله عنه». (حُمَّرَة): طَائِر صَغِير كَالْعُصْفُور. (فَجَعَلَتْ تَفْرُش): مِنْ فَرَشَ الطَّائِر إِذَا فَرَشَ جَنَاحَيْهِ. وفي رواية: تُفَرِّش أَيْ تَرَفْرَفَتْ بِجَنَاحَيْهَا، وَتَقَرَّبَتْ مِنْ الْأَرْض». انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، ضبط وتحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط٢، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ج ٧، صفحة ٣٣٤: ٣٣٥، والجزء ١٤، صفحة ١٨٠: ١٨١.

أخذ الفرخين يحمل في طياته استنكاراً لهذا العمل، وتوبيخا لمن تسبب في حرمان صغار الحمرة من حقهم في الحياة ومن رعاية الحمّرة لهم. وأمره برد ولد هذا الطائر هو ملمح من ملامح الرحمة التي لا يفيض بها إلا قلب نبي كريم يؤلمه أن يُترَك طائرٌ برّي بلا أفراخ ليعاني من قسوة الحياة بعد أخذ صغاره، ومن الحسرة على فقدهم.

ومن مظاهر الرحمة النبوية أيضاً: نهيه ﷺ عن ذبح الحلوب من الأنعام؛ إذ إن ذلك يعني جوع الصغار الذين لم يصلوا بعد إلى مرحلة الفطام والاعتماد على غذاء خارجي غير حليب الأم. فعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال للأنصاري، الذي استضافه وأبا بكر وعمر، حين همّ بذبح شاة إكرامًا لهم: (إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ)[1].

إنها رحمة سبقت بقرون دعاة الرفق بالحيوان من غير المسلمين الذين يذرفون دموع التماسيح على طائر بحري تلوّث بالنفط من جراء غرق ناقلة نفط في عرض البحر، ولا يحركون ساكناً لحرق المسلمين أحياء في دولة مثل بورما، أو لغرق الأطفال في أثناء فرارهم من جحيم الحرب في ديارهم.

٥. النهي عن قتل أنواع محددة من الحيوان لفوائدها البيئية:

لم يخلق الله ﷻ شيئًا عبثاً، وإنما خلقها لغاية قد نعلمها، وقد يخفى علينا سر خلقها، لكن الأحياء جميعها -بوجه عام- مسخرة لخدمة الإنسان ولفائدته. ولكل منها دوره في تحقيق التوازن البيئي (الإيكولوجي) في الأرض. وقد خصّ الرسول ﷺ حيوانات محددة بالنهي عن قتلها، فعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: (إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ:

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، كِتَاب الأشربة، رقم الحديث: ١٤٠ - (٢٠٣٨)، الجزء الثالث عشر، صفحة ٣٠٥.

النَّمْلَة وَالنَّحْلَة وَالْهُدْهُد وَالصُّرَد)[1]. وفي علة ذلك قال الخطابي: «إنما جاء في قتل النمل عن نوع منه خاص وهو الكبار ذوات الأرجل الطوال لأنها قليلة الأذى والضرر. وأما النحلة فلما فيها من المنفعة وهو العسل والشمع. وأما الهدهد والصرد فلتحريم لحمها؛ لأن الحيوان إذا نهي عن قتله ولم يكن ذلك لاحترامه أو لضرر فيه كان لتحريم لحمه؛ ألا ترى أنه نهى عن قتل الحيوان بغير مأكلة؟ ويقال: إن الهدهد منتن الريح فصار في معنى الجلّالة. والصرد تتشاءم به العرب وتتطير بصوته وشخصه، وقيل إنما كرهوه من اسمه من التصريد وهو التقليل»[2]. وتشير المراجع العلمية الحديثة إلى فوائد عديدة لهذه الحيوانات، فمنها ما يفيد في التخلص من النفايات وبقايا الغذاء (كالنمل)[3]، أو في تلقيح الأزهار وإنتاج العسل (كالنحل)[4]، أو الحدّ من طغيان ديدان الأرض (كالهدهد)[5]، أو اصطياد الحشرات الضارة والجنادب (كالصرد)[6]، ومكافحة كل من الذباب ويرقات البعوض بالاغتذاء عليهما (كالضفدع)[7].

(١) أخرجه أبو داود وعبدالرزاق وأحمد وابن ماجه والبيهقي والضياء في المختارة، وحكم على إسناده بالصحة الألباني كما في إرواء الغليل وفي أحكامه على أحاديث سنن أبي داود من حيث بيان صحيحها وضعيفها. انظر: سنن أبي داود (بأحكام وتعليقات الألباني)، مرجع سابق، كتاب الأدب، باب في قتل الذر، رقم الحديث: ٥٢٦٧، صفحة ٩٥١. وانظر: سنن ابن ماجه، كتاب الصيد، باب ما ينهى عن قتله، رقم الحديث: ٣٢٢٤، ج ٤، صفحة ٦١٥. وقال النووي: «رواه أبو داود عن ابن عباس مرفوعا بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم. وكذا صححه الإمام الحافظ عبدالحق الأشبيلي". انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، ج ١٤، صفحة ١٧٩. والصرد: طائر أكبر من العصفور ضخم الرأس والمنقار، يصيد صغار الحشرات. انظر: المعجم الوسيط، صفحة ٥١٢.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، مرجع سابق، ج ١٤، صفحة ١٧٩.

(٣) Book of Common Ants، Eleanor Spicer Rice، Rob Dunn Lab. ، North Carolina State University، 201، Page 20.

(٤) Crop Pollination By Bees، K. S. Delaplane and D. F. Mayer، CABI، New York، 2000، Page 8.

(٥) المحافظة على البيئة من منظور إسلامي، محمد عبدالقادر الفقي، المنظمة الإقليمية لحماية البيئة البحرية، الكويت، ٢٠٠٨، صفحة ٢٢٠.

(٦) الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤١٩ ه، المجلد ١٥، صفحة ٩٠: ٩١.

(٧) Best Management Practices for Mosquito Control، Department of Ecology، Washington State Department of Ecology، Olympia، WA، USA، May 2004، Page 50.

وحرّم الرسول ﷺ أيضاً قتل الضفدع. فعن عبدالرحمن بن عثمان (أَنَّ طَبِيبًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ضِفْدَعٍ يَجْعَلُهَا فِي دَوَاءٍ، فَنَهَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَتْلِهَا)[1]. ولا يخفى أن النهي عن قتل هذه الأحياء لا يقتصر على الفوائد التي ذكرناها، بل هو أيضاً لون من ألوان الرحمة بتلك الأحياء من جهة، وبالبيئة الحيوانية من جهة أخرى. فهذه البيئة متوازنة من حيث عدد الأنواع، ومن حيث تماسك سلاسلها الغذائية. وهي في توازنها معرّضة للانهيار إذا ما حدث أي تدخل بشري أو غير بشري يفقدها هذا التوازن. ولهذا فالحرص على استقرار السلاسل الغذائية للأنواع الحيوانية المختلفة نوع من الرحمة بهذه الأنواع لا يقدره إلا المتخصصون في علوم البيئة.

٦. السماح للأحياء البرية، بما في ذلك المؤذية منها، بالهرب من قتل الإنسان لها لتنعم بحياتها:

وصف النبي ﷺ هروب حيّة من محاولة بعض الصحابة ﷺ قتلها، بدخولها إلى جحرها، بأنها قد وُقِيَت شرهم، ووقاهم الله شرها. فعَنْ عَبْدِاللَّهِ بن مسعود، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَارٍ، فَنَزَلَتْ (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا)، فَإِنَّا لَنَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ، إِذْ خَرَجَتْ حَيَّةٌ مِنْ جُحْرِهَا، فَابْتَدَرْنَاهَا لِنَقْتُلَهَا، فَسَبَقَتْنَا فَدَخَلَتْ جُحْرَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا)[2]. قال ابن حجر في شرحه للحديث: «(وقيت شركم، ووقيتم

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في قتل الضفدع، رقم الحديث: ٥٢٦٩، صفحة ٩٥١. وانظر: سنن النسائي المسمى بالمجتبى وبهامشه حاشية الإمام السندي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تخريج وترقيم وضبط: صدقي جميل العطار، كتاب الصيد والذبائح، باب الضفدع، رقم الحديث: ٤٣٦١، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٥، صفحة ١٠٢٧. وقال الزيلعي: "ورواه أحمد، وإسحاق بن راهويه، وأبو داود الطيالسي في مسانيدهم، والحاكم في (المستدرك في الفضائل) عن عبدالرحمن بن عثمان التيمي، وسكت عنه، وأعاده في (الطب)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال البيهقي: هو أقوى ما ورد في الضفدع، وسعيد بن خالد هو القارظي ضعفه النسائي، ووثقه ابن حبان. وقال الدارقطني: مدني، يحتج به». انظر: نصب الراية لأحاديث الهداية، جمال الدين أبو محمد عبدالله الزيلعي، تصحيح: محمد عوامة، كتاب الذبائح، الحديث الثاني والعشرون، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ج ٤، ١٩٩٧، صفحة ٢٠١.

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري، كِتَاب بَدْءِ الْخَلْقِ، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، =

شرها)، أي قتلكم إياها هو شر بالنسبة إليها، وإن كان خيرا بالنسبة إليهم»[1]. وقال أيضاً في موضع آخر: «(وقيت شركم، ووقيتم شرها)، أي: أن الله سلمها منكم كما سلمكم منها»[2]. ولـمّا لم يطلب الرسول ﷺ من الصحابة قتلها في جحرها، بل التمس لها العذر لهروبها، وقال قولته التي سبقت، يمكننا أن نفهم من ذلك أنه ﷺ راضٍ عن السلوك الذي اتخذته الحية للنجاة بنفسها. وهو ما يتوافق مع مفهوم المحافظة على التنوع الحيوي الذي سبق أن أشرنا إليه، والذي اعتبرناه لوناً من ألوان الرحمة بالأحياء.

٧. تحريم صيد الحيوان في منطقة الحرم، وعلى المحرم بحج أو عمرة:

حرّم الإسلام الصيد في مكة المكرمة والمدينة المنورة، كما حظره أيضاً على من أحرم بحج أو عمرة، فقال تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة:٩٦]. ومن الأحاديث النبوية التي تتعلق بتحريم الصيد في أثناء الإحرام ما قاله الصَّعْب بْن جَثَّامَةَ اللَّيْثِيِّ (أَنَّهُ أَهْدَى لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِمَارًا وَحْشِيًّا، وَهُوَ بِالأَبْوَاءِ، أَوْ بِوَدَّانَ، فَرَدَّهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى مَا فِي وَجْهِهِ، قَالَ: إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ إِلاَّ أَنَّا حُرُمٌ)[3]. وقد ذكر العلماء القدامى أسباباً وراء ذلك التحريم، منها اختبار مدى خشية المؤمن لربه، وإظهار لمدى خوفه من الله ﷻ، ومراقبته له، وتفريغه لأداء النسك، والابتعاد وقتذاك عن اللهو والاشتغال

= رقم الحديث: ٣٣١٧، ج ٢، صفحة ٤٤٧. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتَاب السَّلَام، رقم الحديث: ١٣٧ – (٢٢٣٤)، ج ١٤، صفحة ٣٣٤: ٣٣٥. وقوله: (فابتدرناها): أي: تسابقنا إليها.

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي، راجعه: قصي محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧ه/ ١٩٨٦ م، ج ٦، صفحة ٤١١.

(٢) المرجع السابق، الجزء الرابع، صفحة ٤٩.

(٣) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب إذا أهدي للمحرم حماراً وحشيًا حيا لم يقبل، رقم الحديث: ١٨٢٥، ج ٢، صفحة ١٠. وانظر: أيضاً: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحج، رقم الحديث: ٥٠ – (١١٩٣)، ج ٨، صفحة ١٤٧: ١٤٨.

بالصيد. ويمكن أن نضيف إليها أيضاً: الرحمة بالحيوانات (البرية) التي تعيش في تلك المنطقة الصحراوية الفقيرة بأحيائها الحيوانية والنباتية، وإتاحة المجال أمامها للاستمرار في الوجود والحياة.

٨. إنشاء المحميات الطبيعية للحيوانات:

قبل أن تتجه دول العالم الحديث إلى إنشاء المحميات الطبيعية للمحافظة على الحيوانات والنباتات المهددة بالانقراض، فإن شريعة الإسلام كانت سباقة إلى ذلك بقرون عديدة، من خلال تخصيص مكة المكرمة والمدينة المنورة كمحميتين طبيعيتين للحياة البرية من حيوانات ونباتات. وقد حمى خليل الله إبراهيم عليه السلام منطقة الحرم في مكة. وحمى رسول الله ﷺ المدينة المنورة. وكون مكة والمدينة محميتين يوجب ألا يمس فيهما حيوان إلا المؤذي، ولا نبات إلا ما اقتضته الضرورة. فعن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: قال عليٌّ رضي الله عنه: ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتابُ الله غير هذه الصحيفة، قال: فأخرجها، فإذا فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل. قال: وفيها: (الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ...)[1]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: لَوْ رَأَيْتُ الظِّبَاءَ تَرْتَعُ بِالْمَدِينَةِ مَا ذَعَرْتُهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا حَرَامٌ)، وزاد في رواية بعد قول أبي هريرة: ما ذعرتها: (وَجَعَلَ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا حَوْلَ الْمَدِينَةِ حِمًى)[2].

وقد حمى الرسول ﷺ أماكن خاصة لإبل الصدقة ودواب بيت المال

(١) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الفرائض، باب إثم من تبرأ من مواليه، رقم الحديث: ٦٧٥٥، ج ٤، صفحة ٢٤٢. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحج، رقم الحديث: ٤٦٧ - (١٣٧٠)، ج ٩، صفحة ٢٠١: ٢٠١.

(٢) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب لابتي المدينة، رقم الحديث: ١٨٧٣، ج ٢، صفحة ٢٢: ٢٣. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحج، رقم الحديث: ٤٧١ و٤٧٢- (١٣٧٢)، ج ٩، صفحة ٢٠٥: ٢٠٦.

وخيل الجهاد، فلا يرعى فيها غيرها. فعنْ الصَّعْب بْن جَثَّامَةَ قَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: (لَا حِمَى إِلَّا لِلَّه وَلِرَسُولِه) وَقَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَمَى النَّقِيعَ، وَأَنَّ عُمَرَ حَمَى السَّرَفَ وَالرَّبَذَةَ»[1]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما (أَنّ النّبِيّ ﷺ حَمَى النّقِيعَ لِخَيْلِه)[2].

ولا يخلو إنشاء هذه الحمى من ملامح الرحمة النبوية؛ إذ إن تخصيص هذه الحمى لأنواع خاصة من الحيوان يعني توفير بيئة آمنة لهذه الأحياء لا تمس فيها بأذى، ولا تعاني تلك الأحياء مشقة في الحصول على غذائها، ولا يُخاف عليها من هجوم المفترسات عليها.

وقد أدرك العالم الآن أهمية إنشاء المحميات الطبيعية في المحافظة على الأحياء المعرضة لأخطار الانقراض أو المهددة حياتها بالخطر، فشرعت دول العالم في تخصيص مناطق برية وبحرية فيها لإنشاء هذه المحميات وإدارتها.

(١) صحيح البخاري، كتاب الشرب والمساقاة، باب لا حمى إلا لله ولرسوله ﷺ، رقم الحديث: ٢٣٧٠، الجزء الثاني، صفحة ١٦٧. و(النقيع): موضع قريب من المدينة كان يستنقع فيه الماء، أي يجتمع. انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، مرجع سابق، الجزء الثامن، صفحة ٣٤٠. و(الشرف): كبد نجد. و(الربذة): من قرى المدينة على ثلاثة أيام من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة. والربذة: هي الحمى الأيمن. انظر: معجم البلدان، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، الجزء الثالث، صفحة ٢٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده والبيهقي في (السنن الصغير) وحميد بن زنجويه في (الأموال) وعبد ابن حميد وغيرهم. والحديث حكم عليه العلامة شعيب الارنؤوط بقوله: «حسن لغيره، وإسناده ضعيف لضعف عبدالله بن عمر- وهو العمري -، وقد توبع، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح». انظر: مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مسند عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم الحديث: ٥٦٥٥، تعليق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة قرطبة، القاهرة، بدون تاريخ، الجزء الثاني، صفحة ٩١.
وجاء في (تنقيح التحقيق): "وأخرجه حميد بن زنجويه في «الأموال» (١١٠٥) عن أبي عبيد... وأخرجه أحمد (٥٦٥٥) عن ابن عمر، والبيهقي في الكبرى (١٤٦/٦) من طريق القعنبي عن العمري به. وخالفه عاصم بن عمر بن حفص، فرواه عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر به. ولكن عاصم ضعيف، وقد يكون أضعف من عبدالله العمري، وهو أخوه، والراوي عنه عبدالله بن نافع فيه بعض الضعف». انظر: تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبدالهادي الحنبلي، تحقيق: سامي جاد الله وعبدالعزيز الخباني، أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، صفحة ٢٠: ٢١.

٩. النهي عن قتل الحيوان إلاّ لضرورة، والإحسان إليه في قتله:

نهى رسول الله ﷺ عن قتل أي حيوان أو حشرة دون سبب مشروع أو عذر مقبول، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجِهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً؟)[١]. فتحريم حرق النمل وإضرام النار في بيوته لون من ألوان الرحمة بأمة النمل. وقد سبق أن أشرنا إلى تحريمه ﷺ قتل أمة الكلاب، وأوضحنا علاقة ذلك بالمحافظة على التنوع الحيوي.

وإذا كان الحيوان مما يُؤكل، فإنَّ الرحمة به في السنة النبوية تبلغ الذروة، فقد نهى النبي ﷺ عن تعذيب الحيوان في أثناء الذبح، سواء أكان التعذيب جسديًّا بسوء اقتياده للذبح، أو برداءة آلة الذبح، أم كان التعذيب نفسيًّا برؤية السكين؛ ومن ثَمّ يجمع عليه أكثر من مَوْتة! فمن الإحسان إليه ساعتئذ أن تُحدَّ الشَّفرة، وأن يُسقَى الماء، وأن يراحَ بعد الذبح قبل السلخ. فعن شَدّاد بن أوس قال: ثِنْتَانِ حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ)[٢]. وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ رَحِمَ وَلَوْ ذَبِيحَةَ عُصْفُورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[٣].

(١) رواه الشيخان، انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، رقم الحديث: ٣٣١٩، الجزء الثاني، صفحة ٤٤٧. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، رقم الحديث: ١٤٨ - (٢٢٤١)، الجزء ١٤، صفحة ٣٤٢.

(٢) رواه مسلم وأبو داود. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، رقم الحديث: ٥٧ - (١٩٥٥)، ج ١٣، صفحة ١٥٧.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد والطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في شعب الإيمان. والحديث حسّنه الألباني. انظر: الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، تخريج وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، باب رحمة البهائم، رقم الحديث: ٣٨١، دار الصديق، الجبيل (السعودية)، ط٢، ١٤٢١ه/ ٢٠٠٠م، صفحة ١٣٤.

١٠. عدم أخذ كرائم الأنعام في الزكاة:

في نصيحة النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه إلى أهل اليمن قال له: (وتوقَّ كرائمَ أموال الناس)[١]، أي: أنفَسَها. وقد ذكر شراح الحديث أن أخذ كرائم الأموال وأنفسها ظلم لأصحابها. وهذا صحيح، فعادة ما تكون كرائم الأموال هي الأفضل في نتاجها وإنتاجها، سواء أكانت ذكوراً أم إناثًا. وإبقاء هذه الكرائم يعني ضمان استمرارية الذرية الجيدة بإذن الله.

وفي العمل بهذا الحديث رحمة بأصحاب هذه الكرائم، لأن فيه حفظًا وصيانة للسلالات الجيدة المنتجة، كما لا يخفى علاقة هذا العمل بخلق الرحمة المتمثل في حماية التنوع الحيوي.

(١) متفق عليه. انظر: صحيح البخاري، مرجع سابق، كِتَاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، رقم الحديث: ١٤٥٨، ج ١، صفحة ٤٥٠: ٤٥١. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، كِتَاب السَّلَامِ، رقم الحديث: ١٣٧ - (٢٢٣٤)، ج ١٤، صفحة ٣٣٤: ٣٣٥.

المبحث الثالث
الرحمة بالبيئة النباتية

تمثل البيئة النباتية أحد أهم الموارد الحيوية في كوكبنا الأرضي. فهي توفر الغذاء والدواء لملايين البشر والحيوانات العاشبة. كما أن بعض أنواعها توفر الألياف الضرورية لصناعة الملابس وبعض المنتجات الأخرى. وتقوم النباتات بتوفير الأكسيجين الذي لا غنى عنه لتنفس الكائنات الحية، بما فيها الإنسان. وتوفر الأشجار مأوى للعديد من الحيوانات والطيور والحشرات والهوام، فضلاً عن دورها في توفير الظل لها، وللبشر. وهذا يعني أن في وجود هذه البيئة النباتية منافع لنا، وهي أيضاً رحمة لنا ولغيرنا من المخلوقات التي تعتمد عليها في غذائها ومأواها. ولأنها رحمة، فقد دعت الشريعة الإسلامية إلى معاملتها بالرحمة أيضاً، مع الاستفادة منها في غير إسراف أو إفساد. وقد تضمنت السنة النبوية أحاديث تتضمن صوراً مختلفة للرحمة التي على الإنسان أن يراعيها مع البيئة النباتية، ومن ذلك ما يلي:

١. المحافظة على الحياة النباتية الفطرية:

لما كانت الصحاري فقيرة بغطائها النباتي لاسيما الأشجار، فقد حثّت السنة النبوية على المحافظة على ما يوجد في تلك البيئة الجافة من نباتات. فعَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ حُبْشِيٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً

صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ)[1]. ومِنَ المعروف أن السدر ينبت في البوادي، ويصبر على العطش، ويقاوم الحر، وينتفع الناس بتفيؤ ظلاله والأكل من ثماره إذا اجتازوا الفيافي. فالمحافظة على السدر، بعدم قطعه، فيها رحمة بهذه الشجرة، وفيها أيضاً رحمة بمرتادي الصحراء إذ إنها توفّر لهم الثمار والظل في بيئة تتسم بشدة القيظ فيها صيفاً. كما أن فيها كذلك رحمة بالطيور التي تأوي إلى تلك الشجرة أو تأكل من ثمارها.

وقد سبق أن أشرنا إلى تخصيص مكة المكرمة والمدينة المنورة كمحميتين طبيعيتين للحيوانات والنباتات البرية الموجودة فيهما. ومن الأحاديث النبوية المتعلقة بذلك: ما رواه جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا: لَا يُقْطَعُ عِضَاهُهَا وَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا)[2]. وإذا كان النبي ﷺ قد حرّم قطع العضاه، أي: الأشجار التي بها شوك، فإن تحريم الأشجار المثمرة أو المفيدة أولى. وهذا التحريم يستهدف المحافظة على ملامح الحياة الفطرية في مكة والمدينة. فهو لون من ألوان الرحمة بتلك البيئة القاحلة التي يندر نمو النبات والشجر فيها. وفي الوقت نفسه، فإن عدم الاعتداء على تلك النباتات بالقطع أو الكسر يعني استمرارها في توفير المأوى والغذاء للطيور والحيوانات والحشرات التي تأوي إليها. فهي رحمة عامة بالبيئة وما فيها.

ومن ناحية أخرى، حظرت الشريعة الإسلامية على كل مسلم أن يقطع شجرة في الحرم أو يكسرها أو يحرقها، أو يزيل نباتاً إلا ما كان منه

(١) رواه أبو داود في سننه، وصحّحه الألباني. وقد سئل أبو داود عن معني هذا الحديث فقال: «هذا الحديث مختصر، يعني: من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها صوّب الله رأسه في النار». انظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في قطع السدر، رقم الحديث: ٥٢٣٩، صفحة ٩٤٧. وقال الهيثمي: «رواه أبو داود خلا من قوله: من سدر الحرم. ورواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات». انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب الحج، باب في حرمة مكة والنهي عن غزوها واستحلالها، رقم الحديث: ٥٦٩٨، ج ٣، ٢٠٠١م، صفحة ٤٦٤.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحج، رقم الحديث: ٤٥٨ - (١٣٦٢)، الجزء التاسع، صفحة ١٩٢: ١٩٣. وقال النووي: (اللابتان): الحرَّتان، واحدتهما (لابة)، وهي الأرض الملبسة حجارة سوداء. والعضاه: كل شجر فيه شوك، واحدتها عضاهة.

يابسا ولحاجته. وقد خصص الإمام البخاري في صحيحه باباً حول ذلك، جعل عنوانه (لا يُعْضَد شجر الحرم، وقال ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ: لا يعضد شوكه)[1]. وهذا الحظر يُعدُّ من آليات الرحمة بالبيئة الفطرية في منطقة الحرم المكي التي وصفها القرآن بأنها (بوادٍ غير ذي زرع).

كما حثّ الرسول ﷺ على منع العبث بمعالم البيئة الطبيعية وعوالمها في مكة المكرمة، فقد قال ﷺ يوم فتح مكة: (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا)، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِلَّا الْإِذْخِرَ، فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ، فَقَالَ: (إِلَّا الْإِذْخِرَ)[2].

٢. حماية النبات من الهلاك بالحيوان والإنسان:

أكّدت السنة النبوية على حق النبات في الرفق به وحمايته من الهلاك بالحيوان والإنسان والإفساد في الأرض. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (الْعَجْمَاءُ جَرْحُهَا جُبَارٌ...)[3]. وقال النووي في ذلك: «إن الْبَهِيمَةَ إِذَا كَانَ مَعَهَا سَائِقٌ أَوْ قَائِدٌ أَوْ رَاكِبٌ فَأَتْلَفَتْ بِيَدِهَا أَوْ بِرِجْلِهَا أَوْ فَمِهَا وَنَحْوِهِ، وَجَبَ ضَمَانُهُ فِي مَالِ الَّذِي هُوَ مَعَهَا، سَوَاءٌ كَانَ مَالِكًا أَوْ

(١) صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب جزاء الصيد، الجزء الثاني، صفحة ١٢. ولا يعضد: لا يقطع.

(٢) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم الغادر للبر والفاجر، رقم الحديث: ٣١٨٩، ج ٢، صفحة ٤١٧. وقال النووي: «قَوْلُهُ: (لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ): قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: (الْعَضْدُ): الْقَطْعُ، وَ (الْخَلَا): هُوَ الرَّطْبُ مِنَ الْكَلَأِ. وَمَعْنَى (يُخْتَلَى): يُؤْخَذُ وَيُقْطَعُ، وَمَعْنَى (يُخْبَطُ): يُضْرَبُ بِالْعَصَا وَنَحْوِهَا لِيَسْقُطَ وَرَقُهُ. وَ(الْإِذْخِرُ) نَبْتٌ مَعْرُوفٌ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ. . . (قَيْنِهِمْ): هُوَ الْحَدَّادُ وَالصَّائِغُ. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، كتاب الحج، رقم الحديث: ٤٤٥ - (١٣٥٣)، ج ٩، صفحة ١٧٥: ١٨٠.

(٣) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الزكاة، باب في الركاز الخمس، رقم الحديث: ١٤٤٩، ج ١، صفحة ٤٦٥. وانظر: أيضاً: صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، كتاب الحدود، رقم الحديث: ٤٥ - (١٧١٠)، ج ١١، صفحة ٣١٩. والعَجْمَاءُ هِيَ: كُلُّ الْحَيَوَانِ سِوَى الآدَمِيِّ، وَسُمِّيَتِ الْبَهِيمَةُ عَجْمَاءَ؛ لِأَنَّهَا لَا تَتَكَلَّمُ. وَالْجُبَارُ: الْهَدَرُ.

مُسْتَأْجِرًا أَوْ مُسْتَعِيرًا أَوْ غَاصِبًا أَوْ مُودَعًا أَوْ وَكِيلًا أَوْ غَيْرَهُ. أما إذا كان ذلك بِغَيْرِ تَفْرِيطٍ مِنْ مَالِكِهَا، أو لم يكن مَعَهَا أَحَدٌ فَهَذَا غَيْرُ مَضْمُونٌ»[1]. وهذا يعني أن صاحب الحيوان ضامن إذا خرجت حيواناته ليلًا، وأهلكت زرع أحد؛ لأن عليه حماية حيواناته من الخروج ليلًا. كما أن صاحب الزرع مسؤول عن زرعه نهارًا وعليه حراسته، وإذا اعتدت عليه الحيوانات فهو الضامن لنباته[2]، وفي هذا حماية للنبات المزروع من الهلاك والرعي الجائر والتخريب بالليل والنهار، أي أن ذلك رحمة بالنبات المزروع وبصاحبه.

وقد سبق أن ذكرنا الحديث الذي رواه أبو داود عن قطع السدر، وأوضحنا جانب الرحمة فيه، حيث إن العمل به يعني حماية أشجار البر من القطع الظالم أو الجائر.

وقد حرّم الإسلام قطع نبات الحرم أو إتلافه، وفي هذا حفاظ على النبات في بيئة مكة المكرمة.

٣. تمهيد الأرض واستصلاحها وريها لزراعة النبات:

من أوجه الرحمة النبوية بالنباتات: حث الإنسان على إحياء الموات وتمهيد الأرض واستصلاحها لزراعة النبات فيها، وإحيائها بالماء لإتاحة الفرصة أمام الزروع والشجر للنمو والإثمار والاستمرار في الحياة. فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: (مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لأَحَد فَهُوَ أَحَقُّ)[3]، أي أحق بها من غيره. وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: (مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ)[4].

وقد دعا النبي ﷺ إلى الاهتمام بالغرس والتشجير والزرع. فعن أنس

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، الجزء الحادي عشر، صفحة ٣١٩.
(٢) انظر: تفاصيل ذلك في: المغني، ابن قدامة المقدسي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ود. عبدالفتاح الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، ط٣، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م، ج ١٢، صفحة ٥٤١: ٥٤٣.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، باب من أحيا أرضا مواتا، الحديث رقم: ٢٣٣٥، ج ٢، صفحة ١٥٧.
(٤) المرجع السابق، كتاب الحرث والمزارعة، باب من أحيا أرضا مواتا، ج ٢، صفحة ١٥٧. وقال ابن حجر: «قوله: (وقال عمر من أحيا أرضا ميتة فهي له) وصله مالك في (الموطأ) عن ابن شهاب عن سالم عن أبيه مثله». انظر: فتح الباري، ج ٥، صفحة ٢٣.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَغْرِسْهَا)[1]. وتنبع أهمية هذه الدعوة من دور النباتات في حفظ التوازن البيئي للأرض، وفي دعم مختلف أنواع الحياة الحيوانية بها، من خلال قيامها بإنتاج الأكسيجين الذي لا غنى عنه لحياة البشر والحيوانات والنباتات أيضاً. فهذه الدعوة تحمل في طياتها رحمة بكل هذه المخلوقات.

٤. حماية بيئة النبات من التلوث:

حث النبي ﷺ على الرحمة بالنبات من خلال حفظ حقه في النمو في بيئة أرضية نظيفة. ويتجلى ذلك في نهيه ﷺ عن قضاء الحاجة (التبول والتبرز) تحت الأشجار وأماكن ظلها وسقوط ثمارها، وعدَّ ذلك من الملاعن التي توجب لعنة المسلمين على فعلها. فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَفِي الظِّلِّ)[2].

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد)، وأحمد، وعبد بن حميد في مسنده، والبزار في مسنده. والحديث صححه الألباني. انظر: الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية (الأدب المفرد)، مرجع سابق، باب اصطناع المال، رقم الحديث: ٤٧٩، صفحة ١٦٣.

(٢) رواه أبو داود وأحمد وابن ماجه والحاكم والبيهقي والطبراني وغيرهم. وقال أبو داود عنه: هذا مرسل، وهو مما انفرد به أهل مصر. والحديث حسّنه الألباني. انظر: سنن أبي داود، مرجع سابق، كتاب الطهارة، باب المواضع التي نهى النبي ﷺ عن البول فيها، رقم الحديث: ٢٦، صفحة ١٠. وقال المزي: روى عن معاذ بن جبل، أراه مرسلا. انظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ج ٣٣، صفحة ٣٥٤. وقد جاء هذا الحديث في رواية عند أحمد، أن ابن هبيرة قال: أخبرني من سمع بن عباس ﷺ يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَ)، قِيلَ: مَا الْمَلَاعِنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (أَنْ يَقْعُدَ أَحَدُكُمْ فِي ظِلٍّ يُسْتَظَلُّ فِيهِ، أَوْ فِي طَرِيقٍ، أَوْ فِي نَقْعِ مَاءٍ). انظر: مسند أحمد بن حنبل، مسند عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب، رقم الحديث: ٢٧١٥، ج ١، صفحة ٢٩٩. وقال الهيثمي: «وفيه ابن لهيعة ورجل لم يسم». وجاء في تعليق شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لإبهام راويه عن ابن عباس. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مرجع سابق، كتاب الطهارة، باب ما نهي عن التخلي فيه، رقم الحديث: ٩٩٧، ج ١، صفحة ٢٧٩.

المبحث الرابع
الرحمة بالبيئة غير الحية (الجمادات)

عُرِّف الجماد في معجم اللغة العربية المعاصرة بأنه: «قسم من أقسام الكائنات، وهو ما لا ينمو، ولا حياة له خلاف الإنسان، والحيوان، والنبات»[(١)].

والجمادات هي القوت الأساسي للأحياء، وبخاصة للكائنات البسيطة (كالطحالب). فلإعالة الحياة في الأرض قدّر الخالق ﷻ فيها أقواتها، وجعلها متاحة لما خَلَقه، وما بثه فيها من أصناف النبات والحيوان. وتشمل هذه الأقوات جميع الجمادات الموجودة في الأرض من هواء وماء وحرارة وضوء وتربة وصخور ومعادن وطاقة[(٢)]. ومن الملاحظ أن جميع الأحياء النباتية أو الحيوانية (بما في ذلك البشر)، عند موتها تتحلل وتتحول إلى التراب، ويتبخر منها الماء والهواء، أي: تتحول إلى جمادات[(٣)]. ويندرج تحت الجمادات ما يسمى بالبيئة المشيدة، التي تتمثل في جميع المنشآت التي يبنيها الإنسان أو يغير بها معالم سطح الأرض أو البحر، مثل المدن والقرى والمنازل والمدارس والمساجد والطرق والأسواق والجزر الصناعية

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م، المجلد الأول، صفحة ٣٩١.

(٢) البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث – رؤية إسلامية، محمد عبدالقادر الفقي، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ١٩٩٣، صفحة ٢٦.

(٣) المحافظة على البيئة من منظور إسلامي، مرجع سابق، صفحة ٤٤: ٤٦.

ومراكز الترفيه والبنى التحتية[1].

ولما كانت الرحمة عاطفة حية تنبض بالحب والرأفة واللين والشفقة، فإننا نجد خير تمثيل لها في شخصية النبي ﷺ. فقد اتسعت رحمته لتشمل الأحياء والجمادات. وقد تناولنا في المباحث السابقة بعض مظاهر الرحمة النبوية بالبيئة بوجه عام وبالحيوانات والنباتات. أما صور رحمته ﷺ بالجمادات فمتعددة. فمن ذلك:

١. العطف والشفقة على جذع النخل:

قد يكون من المألوف أن يرحم الإنسان إنساناً مثله، أو أن يرفق بحيوان ما، أو يرقّ لحال شجرة تعاني من الجفاف فيسقيها، ولكن أن يوجه الإنسان رحمته إلى جماد لا يتحرك ولا يتكلم، فهذا لون من الرحمة لا يمكن أن يمارسه إلا نبي كريم. ولعل حادث حنين الجذع خير مثال يمكن أن نسوقه في هذا السياق لبيان الرحمة التي كان يفيض بها قلب نبينا محمد ﷺ حتى بالجمادات. ومن المعروف أن النباتات إذا اجتثت من الأرض فقدت وظائفها الحيوية، ومن ثم سرت عليها قوانين الجماد. وقد ورد حديث الجذع في كتب الصحاح. فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ، فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيهِ، فَحَنَّ الْجِذْعُ فَأَتَاهُ يَمْسَحُ يدَهُ عليْه)[2]. ومع أن في هذا الحديث معجزة من معجزاته ﷺ، تمثّلت في حنين الجذع بصوت مسموع كصوت الناقة العشراء، فإن رد الفعل الانفعالي للنبي ﷺ كان أعظم. فلم يتركه يئن، وهو يعلم أنه جماد لا روح فيه، بل أقبل عليه يمسح يده عليه، وكأنه يتعامل مع رضيع يبكي، وهو سلوك عظيم من صاحب قلب رحيم. وثمة رواية أخرى

(١) البيئة ومشكلاتها، صفحة ٢٧.
(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث: ٣٥٨٣، ج ٢، صفحة ٥٢٥.

للحديث نفسه، تذكر أن الرسول ﷺ ضمّ الجذع إلى صدره. فعَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِاللَّه رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَوْ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّه أَلَا نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَرًا؟ قَالَ: (إِنْ شِئْتُمْ). فَجَعَلُوا لَهُ مِنْبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ»[1]. إنها الرحمة التي تفيض بها جوانح النبي ﷺ، فتجعله يرق ويشفق على جذع ميت من جذوع النخل، لا قيمة اقتصادية له إذا ما قورن بينه وبين جذع أي شجرة أخرى.

٢. الإحسان إلى الأرض:

تدل كلمة الرحمة -فيما تدل- على الإحسان، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، أي: إلا من أحسن (الله) إليه وعطف عليه[2]. وتُعَدُّ عمارة الأرض لوناً من ألوان الإحسان إليها، أي الرحمة بها وبما فيها من مخلوقات. والرحمة بالإحسان أقوى من الرحمة التي تقوم على الرقة واللطف أو المودة أو العفو؛ لأن الإحسان لا يكون إلا عن سجية طيبة وخلق كريم ونفس تفيض بالعطف وتتسم باللين والرفق ورهافة الحس. وعمارة الأرض نوع من أنواع الرحمة العامة؛ إذ تنضوي تحتها كل عناصر البيئة الحية وغير الحية. ولهذا، حثّت السنة النبوية على الإحسان إلى الأرض بغرسها وتشجيرها، وجعلت ثواب ذلك أجراً عظيماً، فكل ما يصاب من ثمار الأشجار والزروع هو صدقة ينميها الله ﷻ لصاحبها إلى يوم القيامة، بما في ذلك ما تصيبه أحياء البيئة من طير وسباع وحيوان ودواب وحشرات، حيث يقول النبيُّ ﷺ: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ

(١) المرجع السابق، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث: ٣٥٨٤، ج ٢، صفحة ٥٢٥.
(٢) المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، صفحة ٢٠٣.

زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ)[1]. وإذا عجز المرء عن الإحسان إلى الأرض بزراعتها فإن عليه ألا يتركها لتبور، بل عليه أن يعطيها للقادر على زراعتها. فقد قال ﷺ: (مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا، أو ليمنحها أخاه، فإن أبى فليمسك أرضه)[2].

٣. إماطة الأذى عن الطرق:

من صور الإحسان إلى البيئة المشيدة: إماطة الأذى عما فيها من الطرق. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي الله ﷺ قال: (وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)[3].

وإماطة الأذى كلمة جامعة لكل ما فيه إيذاء الناس ممن يستعملون الشوارع والطرقات. وقد أوضح ذلك رسول الله ﷺ حين قال: (وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنْ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ)[4].

ويندرج تحت إماطة الأذى: تنظيف الشوارع من القمامة والنفايات وما شابه ذلك مثل العوادم الضارة لوسائل النقل.

٤. الإحسان إلى بيئة المسجد:

المساجد بيوت الله في الأرض. ومن الواجب على كل مسلم أن يحسن

(١) صحيح البخاري، كِتَاب الحرث والْمُزَارَعَةِ، بَاب فَضْلِ الزَّرْعِ وَالْغَرْسِ إِذَا أُكِلَ مِنْهُ، رقم الحديث: ٢٣٢٠، ج ٢، صفحة ١٥٢.

(٢) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب فضل المنيحة، رقم الحديث: ٢٦٣٢، ج ٢، صفحة ٢٤٥. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البيوع، رقم الحديث: ٨٩ - (١٥٣٦)، ج ١٠، صفحة ٢٨٠: ٢٨١.

(٣) رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، رقم الحديث: ٢٩٨٩، ج ٢، صفحة ٣٥٥: ٣٥٦. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة، رقم الحديث: ٥٦ - (١٠٠٩)، ج ٧، صفحة ١٣٢.

(٤) رواه الترمذي، وقال أبو عيسى: (هذا حديثٌ حسن غريب). والحديث صححه الألباني. انظر: سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في صنائع المعروف، رقم الحديث: ١٩٥٦، صفحة ٤٤٥.

إلى بيئتها بأن يحافظ عليها من الملوثات بشتى أنواعها. ومن هذه الملوثات: النخامة والبصاق والقمامة والنجاسات. فاجتناب هذه الملوثات لون من ألوان الرحمة ببيئة المسجد وما تضمه من مكونات حية (مصلين) وغير حية (أرض المسجد وعمارته). وفي النخامة يقول النبي ﷺ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا. فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لا تُدْفَنُ)[1]. وفي النهي عن البصق على أرض المسجد، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْبُزَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ، وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا»[2]. ورغم أن الحديث ذكر أرض المسجد فإنه يشمل طرق المسلمين عامة، بل الأرض جميعها، ومما يشجعنا على القول بذلك حديث قول النبي ﷺ: «... وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»[3].

وإذا حدث أن تنجست بيئة المسجد، فإن من الإحسان إليها تطهيرها من الفور. فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قال: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: (دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ -أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ- فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ)[4].

وقد أثنى النبي ﷺ على من أحسن إلى بيئة المسجد بتنظيفها على القمامة. فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه «أَنَّ رَجُلًا أَسْوَدَ -أَوْ امْرَأَةً سَوْدَاءَ- كَانَ يَقُمُّ الْمَسْجِدَ، فَمَاتَ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ فَقَالُوا: مَاتَ. قَالَ: (أَفَلَا كُنْتُمْ

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٥٧ - (٥٥٣)، ج ٥، صفحة ٥٧: ٥٨.

(٢) متفق عليه. انظر: صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب كفارة البزاق في المسجد، رقم الحديث: ٤١٥، ج ١، صفحة ١٥١. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٥٥ - (٥٥٢)، ج ٥، صفحة ٥٥: ٥٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، رقم الحديث: ٤٣٨، ج ١، صفحة ١٥٨.

(٤) المرجع السابق، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم الحديث: ٢٢٠، ج ١، صفحة ٩١.

آذَنْتُمُونِي بِهِ؟ دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ -أَوْ قَالَ: قَبْرِهَا- فَأَتَى قَبْرَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ»[1].

٥. الإحسان إلى الماء:

لما كان الماء بَرَكة وخيراً يغاث به الناس والدواب والحرث، وكان عماد الحياة، لذلك فإن الإحسان إليه يعد ضرورياً حتى يستمر هذا المورد البيئي المهم في أداء دوره في إعالة الحياة. ويكون الإحسان إلى الماء بعدم الإسراف في استخدامه لغير حاجة تستدعي ذلك. فعن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَغْسِلُ، أَوْ كَانَ يَغْتَسِلُ، بِالصَّاعِ إِلَى خَمْسَةِ أَمْدَادٍ، وَيَتَوَضَّأُ بِالْمُدِّ)[2].

٦. الإحسان إلى المعالم الجغرافية:

امتدت رحمة رسول الله ﷺ إلى كثير من المعالم الجغرافية، بما في ذلك المدن والجبال والوديان، وحتى بعض الأحجار. وقد كانت لبعض معالم المدينة منزلة خاصة في قلب النبي ﷺ، فأولاها برحمته المعنوية، المتمثلة في الحب والمودة. ومثال ذلك: جبل أحد. فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ بدا له أُحُد فقال: (هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ)[3].

ومن صور رحمته المعنوية ﷺ بالمدينة المنورة دعاؤه لها بالبركة: فعن أبي هريرة ﷺ قال: كان النَّاسُ إذا رأوا أوَّل الثمر جاءوا به إلى رسول اللَّه ﷺ، فإذا أخذه قال: (اللهم بَارِكْ لنا في ثمرنا؛ وبَارِكْ لنا في مدينتِنا؛

(١) نفسه، كتاب الصلاة، باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيدان، رقم الحديث: ٤٥٨، ج ١، صفحة ١٦٤: ١٦٥.

(٢) نفسه، كتاب الوضوء، باب الوضوء بالمد، رقم الحديث: ٢٠١، ج ١، صفحة ٨٥. وجاء في الموسوعة الفقهية: «والمد: كيل مقداره رطل وثلث عند أهل الحجاز، وهو ربع صاع». انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف، الكويت، ط٣، ١٤١٧هـ، ج ٣٦، صفحة ٢٨٤. وقوله: (وبارك لنا في مُدِّنا) ليس المراد منه البركة بذات المد ولكن المقصود هو ما فيه من الثمار. جاء في (فتح المنعم): «والمراد بالبركة فيما يكال». انظر: فتح المنعم شرح صحيح مسلم، د. موسى شاهين لاشين، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ، ج ٥، صفحة ٤٤٧.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث في الحاشية ٢٠.

وبَارِكْ لنا في صاعِنا؛ وبارك لنا في مُدِّنا. اللهم إنَّ إبراهيمَ عبدُك ونبيُّك، وإنِّي عبدُك ونبيُّك، وإنَّه دعاك لمكَّة، وإنِّي أدعُوك للمدينةِ بمثل ما دعاك به لمكَّة ومثله معه)[1].

وقد طالت دائرة الرحمة النبوية الأحجار أيضاً، وبلغت المودة بينه وبين حجر منها أنه ﷺ كان يلقي عليه السلام، فيرد عليه الحجر سلامه، وهذا من معجزاته ﷺ، كما أنه من مظاهر تواضعه ولينه ومودته ورحمته حتى مع الحجر الأصم. فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ، كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ. إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ)[2].

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، كِتَاب الْحَجِّ، رقم الحديث: ٤٧٣ - (١٣٧٣)، الجزء التاسع، صفحة ٢٠٦.

(٢) المرجع السابق، كتاب الفضائل، رقم الحديث: ٢ - (٢٢٧٧)، الجزء الخامس عشر، صفحة ٥٣.

الخاتمة

لقد أدى سوء استغلال الموارد البيئية، والابتعاد عن القيم الدينية والأخلاقية في التعامل مع البيئة في المجتمعات الصناعية المعاصرة إلى تفاقم المشكلات البيئية، مثل: التلوث، ونضوب الأوزون، والاحتباس الحراري، وانقراض العديد من الأنواع الأحيائية الحيوانية والنباتية. ومما يزيد الطين بلّة أن الإنسان المعاصر تعامَل مع البيئة وكأنها ملكيته الخاصة وليست ميراثاً لجميع البشر حاضراً ومستقبلاً، فعجّل بإفسادها. وبينما يعاني العالم من تدنٍّ في أحواله البيئية نجده ينفق مليارات الدولارات كل عام على الحروب والأنشطة العسكرية التي تدمر البيئة. واللافت للنظر أن الدول ذات الدخل المحدود تصرف معظم دخلها على التسلح كل عام، وتهمل مشروعات الزراعة وتأمين المياه الصحية وتوفير المأوى اللائق والتعليم وبرامج المحافظة على الصحة العامة لسكانها.

ولعلاج هذه المشكلات، فإن البشرية بحاجة إلى اعتناق المبادئ الإسلامية المتعلقة بالمحافظة على البيئة والرفق بمواردها، وتطبيق ما يعرف بالرحمة البيئية التي تعني احترام البيئة والتعامل معها في

إطار الرفق بها، مع الاستفادة من مواردها دون إفراط أو تفريط، ودون استنزاف أو هدر أو تلويث وإفساد لها ولخصائصها وأنظمتها. ومن استقراء الأحاديث النبوية التي أوردناها في هذا البحث، وفي الدراسات السابقة التي تعرضت للبيئة في الإسلام، ندرك أن الرحمة النبوية بالبيئة طالت الأنفس البشرية والأحياء التي تشاركنا المعيشة على كوكبنا الأرضي من حيوانات ونباتات، كما امتد نطاقها لتشمل المكونات غير المادية للبيئة من الجمادات. وهذه الأحاديث ذات أهمية عظمى في برامج حماية البيئة إذا تم توظيفها في التوعية البيئية وفي إعداد البرامج والخطط الخاصة بالمحافظة على البيئة؛ لأنها تحث على حماية المخلوقات التي تعيش على الأرض والإحسان إليها، مع الاستفادة مما في الأرض من موارد ومقدرات وفق ضوابط خاصة من غير إفراط ولا تفريط أو إسراف أو تدمير.

ولهذا، فإن واجب الباحثين المسلمين المعنيين بقضايا البيئة، إبراز هذا الجانب لغير المسلمين، وتعريفهم بمظاهر الرحمة البيئية في سيرة الحبيب ﷺ وأقواله وأفعاله، لاسيما وأن حماية البيئة أصبحت قيمة من قيم الحضارة المعاصرة، وهي تحظى حالياً باهتمام العالم أجمع. ولن تحل المشكلات البيئية الكبرى التي تعاني منها البشرية الآن إلا من خلال تطبيق مبدأي الرحمة والعدالة البيئية. فقد أخفقت التشريعات البيئية الوضعية في معالجة تلك المشكلات بسبب غياب هذين المبدأين من تلك التشريعات، وبسبب إصدار القوانين والأنظمة التي تراعي مصالح من يهمّهم الكسب السريع على حساب استنزاف الموارد وتلويث البيئة.

أهم النتائج:

١. إن نصوص السنة النبوية الشريفة غنية جداً بما ورد على لسان الرسول ﷺ من أقوال وأفعال تتعلق بالرفق بالبيئة والرحمة بمكوناتها.

٢. تبدي السنّة اهتماما خاصًا بقضية الرفق بالحيوان والنبات والجماد.

٣. إن استقراء الأحاديث النبوية المتعلقة بالبيئة يؤكد أن الرسول ﷺ كان من أكثر الناس رحمة بالبيئة ومكوناتها، وأن رحمته امتدت حتى إلى الأشجار والأحجار.

أهم التوصيات:

١. ضرورة التأصيل لقيم حماية البيئة استناداً إلى سيرة النبي ﷺ وسنته الشريفة.

٢. إعادة قراءة السنة النبوية من منظور عصري لاستخلاص المبادئ والأفكار التي تفيد في حل القضايا المعاصرة بما فيها قضية المحافظة على البيئة وثرواتها، وضرورة ترجمة هذه المبادئ إلى اللغات الأخرى لتعريف غير المسلمين بالدور العظيم لنبي الإسلام في هذا الموضوع، وكيف أنه كان رحيماً بالبيئة محسناً لها، على النقيض من أولئك الزعماء الذين يتشدقون الآن ببرامجهم البيئية وفي الوقت نفسه لا يتورعون عن تدمير البيئة باستخدام أسلحة الدمار الشامل في الحرب.

٣. التأكيد على أهمية التعاون بين الباحثين الشرعيين والبيئيين لمعالجة قضايا البيئة.

٤. يجب أن تراعى القيم الأخلاقية المتعلقة بحماية البيئة والمستفادة من الأحاديث النبوية في برامج التنمية ومشروعاتها التي يجري تنفيذها في دول العالم الإسلامي.

٥. تضمين مناهج التعليم في المراحل المختلفة موضوعات عن

مظاهر الرحمة النبوية في مجال التعامل مع مختلف مكونات البيئة والمحافظة عليها.

٦. دعوة المفكرين والفقهاء والباحثين وخبراء البيئة إلى التعاون فيما بينهم لعرض الرؤية الإسلامية الشاملة لقضايا البيئة استناداً إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، والعمل على تصحيح المسار وبيان مواطن الخلل كلما أتيحت لهم الفرصة في المحافل العلمية والفكرية.

٧. دعوة المؤسسات البيئية والهيئات الدينية في العالم الإسلامي إلى تطبيق المبادئ الإسلامية المتعلقة بالمحافظة على البيئة والرفق بمواردها، وتطبيق ما يعرف بالرحمة البيئية التي تعني احترام البيئة والتعامل معها في إطار الرفق بها مع الاستفادة من مواردها دون إفراط أو تفريط، حتى نكون قدوة لغيرنا من غير المسلمين.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم
٢. الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، تخريج وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق، الجبيل (السعودية)، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
٣. البيئة ومشكلاتها، رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريني، سلسلة عالم المعرفة، الكتاب الثاني والعشرون، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر ١٩٧٩م.
٤. البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث - رؤية إسلامية، محمد عبدالقادر الفقي، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ١٩٩٣.
٥. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.
٦. تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبدالهادي الحنبلي، تحقيق: سامي بن محمد بن جاد الله وعبدالعزيز ابن ناصر الخباني، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
٧. التنوع الأحيائي، د. عبدالحكيم بدران، الجمعية الكويتية لحماية البيئة، الكويت، سبتمبر ١٩٩٥م.
٨. الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، شرح وتحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

٩. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
١٠. جامع العلوم والحكم، عبدالرحمن بن شهاب الدين زين الدين أبو الفرج ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
١١. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، الجزء التاسع، صفحة ٢٤٩.
١٢. سنن ابن ماجه بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندي وبحاشيته تعليقات مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للإمام البوصيري، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
١٣. سنن ابن ماجه، الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
١٤. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني، ضبط وفهرسة: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٧هـ.
١٥. صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت/ دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٦. سنن الترمذي، الإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني، ضبط وفهرسة: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١٧. سنن النسائي المسمى بالمجتبى وبهامشه حاشية الإمام السندي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تخريج وترقيم وضبط: صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان)، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ - ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٨. صحيح مسلم بشرح النووي، يحيى بن شرف النووي، مؤسسة قرطبة، الجيزة، مصر، ط٢، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

١٩. عون المعبود شرح سنن أبي داود مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، ضبط وتحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط٢، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

٢٠. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي، راجعه: قصي محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

٢١. كتاب الأربعين النووية، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، خرج أحاديثه وشرح غريبه: أحمد عبدالرازق البكري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٢٢. الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، مقابلة وإعداد وفهرسة: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٢٣. فتح المنعم شرح صحيح مسلم، موسى شاهين لاشين، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
٢٤. لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.
٢٥. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.
٢٦. المحافظة على البيئة من منظور إسلامي، محمد عبدالقادر الفقي، المنظمة الإقليمية لحماية البيئة البحرية، الكويت، ٢٠٠٨م.
٢٧. المستدرك على الصحيحين في الحديث وفي ذيله تلخيص المستدرك للإمام الحافظ شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي، الحافظ الكبير أبو عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بالحاكم النيسابوري، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدرأباد الدكن (الهند)، الطبعة الأولى، ١٣٤٠هـ.
٢٨. مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، تعليق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة قرطبة، القاهرة، بدون تاريخ.
٢٩. مصطلحات علوم القرآن، د. عبدالحليم عويس وآخرون، دار الوفاء، المنصورة، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧ م.
٣٠. معجم البلدان، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
٣١. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
٣٢. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، أ. ي. ونسنك؛ مطبعة بريل، ليدن، ١٩٣٦م.
٣٣. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤.

٣٤. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي؛ مؤسسة جمال للنشر، بيروت، بدون تاريخ.
٣٥. المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، د. أحمد مختار عمر، مؤسسة سطور المعرفة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
٣٦. المغني، ابن قدامة المقدسي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ود. عبدالفتاح الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٧ هـ-١٩٩٧ م.
٣٧. الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
٣٨. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط٣، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٣٩. نصب الراية لأحاديث الهداية، جمال الدين أبو محمد عبدالله الزيلعي، تصحيح: محمد عوامة، دار القبلة للثقافة الإسلامية/ مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع/ المكتبة المكية، جدة/ بيروت، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٤٠. الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، الإمام أبو عبدالله الحسين بن محمد الدامغاني، تقديم وتحقيق: عربي عبدالحميد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، صفحة ٢٢٤ : ٢٢٧ .
٤١. Best Management Practices for Mosquito Control، Department of Ecology، Washington State Department of Ecology، Olympia، WA، USA، May 2004.
٤٢. Book of Common Ants، Eleanor Spicer Rice، Rob Dunn Lab. ، North Carolina State University، 2010.
٤٣. Crop Pollination By Bees، K. S. Delaplane and D. F. Mayer، CABI، New York، 2000.

٤٤. Economic and Environmental Benefits of Biodiversity، David Pimentel et al. ، BioScience، Volume 47، No. 11، Dec. ، 1997.

٤٥. Environmental Science، Y. K. Singh، New Age International (P) Limited، New Delhi، 2006.

٤٦. The epidemiology And evolution of influenza viruses in pigs، Veterinary Microbiology، Volume 74، 2000.

٤٧. Friend of Animals: The Story of Henry Bergh، Mildred Mastin Pace، New York: Charles Scribner's Sons، 1942.

٤٨. How to Do Animal Rights Legally، with Confidence، Ben Isacat، Oxford، Britain، 2013.

٤٩. The Rights of Persons According to the Text of Blackstone: Incorporating the Alterations Down to the Present Time، Sir William Blackstone and James Stewart، Edmund Spettigue، Law Bookseller And Publisher، London، 1839.

٥٠. Species Extinction: The Facts، The International Union for Conservation of Nature (IUCN)، Gland، Switzerland، 2008.

٥١. Van Nostrand's Scientific Encyclopedia، Douglas M. Considine (Editor)، Van Nostrand Reinhold Company، New York، U.S.A، 1976.

٥٢. Wildlife Ecology and Forest Habitat، Janean H. Creighton and David M. Baumgartner، College of Agriculture and Home Economics: Washington State University، Washington، 1997.

٥٣. http://www.animalethics.org.uk/i-ch6-4-martin. html